



جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

مظاهر العمران الاجتماعي في المملكات

إعداد الطالبة
صفاء حسين البياضة

بإشراف:
الدكتور ماهر المبيضين

رسالة مقدمة إلى عمادة الدراسات العليا
استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في اللغة العربية وآدابها

جامعة مؤتة، 2010م

الآراء الواردة في الرسالة الجامعية لا تُعبر
بالضرورة عن وجهة نظر جامعة مؤتة

بسم الله الرحمن الرحيم



MUTAH UNIVERSITY
Deanship of Graduate Studies

جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم (14)

قرار إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالبة صفاء حسين البياضه الموسومة بـ:

مظاهر العمران الاجتماعي في المملكات

الاستكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية.

القسم: اللغة العربية.

التاريخ	التوقيع	الاسم والصفة
2010/08/02		الدكتور احمد المبيضين مشرفاً ورئيساً
2010/08/02		الدكتور احمد المبيضين عضواً
2010/08/02		الدكتور احمد المبيضين عضواً
2010/08/02		الدكتور احمد المبيضين عضواً

عميد الدراسات العليا
أ.د. نضال صالح الحوامدة



MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail:

<http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm> dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo

مكتب الدراسات العليا
61710
03 2372380-99
5328-5330
03 2375694
مكتب الدراسات العليا

الإهداء

بعد أن منّ الله عليّ في إنجاز هذا العمل، فإنني أُهدي هذه الثمرة إلى:
والديّ الكريمين اللذين قدما لي كل نصيح وفضل وإرشاد، ومنحاني كل حب
وحنان، فجزاهما الله عني كل خير.
وإلى زوجي العزيز معاذ الذي تحمل معي مشاق العمل، ورافقني خطوة
خطوة، وعانّ معي صابراً ومشجعاً لي إلى أن اكتمل هذا العمل بفضل الله تعالى.
وإلى كل من ساعدني في إتمام هذا العمل حباً ووفاءً.

صفاء البياضة

الشكر والتقدير

بعد الشكر لله عز وجل الذي منّ عليّ بإتمام هذا العمل، فإنني أتوجه بالشكر والعرفان للدكتور ماهر أحمد المبيضين المشرف على هذه الرسالة، والذي تابعتني خطوة بخطوة، وأعطاني من وقته الكثير نصحاً وإرشاداً وتوجيهاً، وأمدني بمعلومات قيمة أثرت هذا العمل، فجزاه الله عنّي كلّ خير.

ولا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل من الأساتذة الأجلاء أعضاء لجنة المناقشة الأستاذ الدكتور شفيق الرقب، والدكتور إبراهيم النعانة، والدكتور أحمد الزعبي، الذين تفضلوا بقبول مناقشة هذه الرسالة ووضعهم الملحوظات القيمة التي من خلالها سأقوم ما اعوج فيها بإذن الله تعالى.

صفاء البياضة

قائمة المحتويات

الصفحة	المحتوى
أ	الإهداء.....
ب	شكر وتقدير.....
ج	قائمة المحتويات.....
و	الملخص باللغة العربية.....
ز	الملخص باللغة الإنجليزية
1	المقدمة
3	تمهيد
	الفصل الأول: مظاهر الحياة القبلية
10	1.1 الفخر بالقبيلة.....
13	2.1 طبيعة الحياة القبلية
14	3.1 سيد القبيلة
15	4.1 أهمية النسب في القبيلة
17	5.1 الأحلاف القبلية
18	6.1 العصية القبلية
21	7.1 أيام العرب
22	8.1 الديانة.....
23	9.1 أحداث تاريخية
24	10.1 التنقل والترحال
26	11.1 الناقة والفرس
27	12.1 الصيد
28	13.1 الماء والسيل والمطر
30	14.1 الألعاب القبلية
	الفصل الثاني: مظاهر الحضارة في شعر المعلقات
33	1.2 الأطلال
35	2.2 الخمر

38	3.2 الأسلحة وأدوات القتال
40	4.2 العطور
41	5.2 أدوات موسيقية
41	6.2 الملابس
43	7.2 المساكن
45	8.2 أدوات الكتابة
46	9.2 الإنارة
47	10.2 السفن
47	11.2 أدوات الطعام والشراب
48	12.2 مظاهر حضارية مختلفة
	الفصل الثالث: الذوق الجمالي في شعر الملحقات
53	1.3 صورة المرأة في شعر الملحقات (المرأة)
54	2.3 وصف المرأة
60	3.3 أوصاف معنوية
61	4.3 المرأة ولباسها وزينتها
62	5.3 الحلي
64	6.3 الطيب
64	1.6.3 المسك
65	2.6.3 الزنبق
66	7.3 الوشم
66	8.3 مراكب النساء وخدورها
68	9.3 المرأة القينة
	الفصل الرابع: مظاهر القيم والمثل العليا
73	1.4 الكرم
76	2.4 الشجاعة والفروسية
80	3.4 العفة
81	4.4 رفض الذل وإباء الضيم
84	5.4 الوفاء
87	6.4 الحلم
88	7.4 الدعوة إلى السلم (فك الصراع)

90	 8.4 الحكمة
96	 الخاتمة
98	 المراجع

الملخص

مظاهر العمران الاجتماعي في شعر المعلقات

صفاء حسين البياضة

جامعة مؤتة، 2010

تتناول هذه الدراسة ظاهرة العمران الاجتماعي في شعر المعلقات، انطلاقاً من أن المعلقات كانت وليدة الحياة الجاهلية، بكل جوانبها، وتسعى هذه الدراسة أيضاً إلى إبراز مظاهر العمران الاجتماعي كما صورتها المعلقات بمختلف صورها في ضوء دراسة متأنية للنماذج الشعرية التي أبرزت مثل هذه الجوانب، حيث تم استخلاص صور الحياة القبلية بكل تفاصيلها، وكذلك صور الحضارة العربية في ذلك العصر من خلال الحديث عن بعض الصناعات والحرف وغير ذلك.

وتمت دراسة مظاهر الذوق الجمالي في شعر المعلقات، وبخاصة ما يتعلق بالمرأة وجمالها وزينتها، ثم درست القيم والمثل العليا في الشعر نفسه، وهي القيم التي تمسك بها العربي في ذلك العصر.

وكشفت هذه الدراسة عن جملة من النتائج منها، أن المعلقات كانت وليدة الحياة الجاهلية التي ارتبطت بدوافع نظمها عند الشعراء، كما كشفت الدراسة عن أن المعلقات تضمنت تصوراً كاملاً لمظاهر العمران، الاجتماعي بكل تفاصيله، حيث صور الشعراء جوانب تلك الحياة التي عاشها العرب آنذاك.

Abstract
Summary of the manifest of social growth in Mo'allaqat poetry
Safa'a Hussien AL-Byaydeh
Mutah University,2010

This study contains a manifest of social growth in Mo'allaqat poetry starting from the Mo'allaqat used in the Jahiliyya days in every side, which lead this study to show the manifest of social growth, which is exactly how other Mo'allaqat pictured it with its different pictures in the study of the poetic models, which have shown these ideas. In addition to that, pictures of the tribal life with all of its details were taken with the pictures of the Arabic Modernity during that time by talking about some of the letters, discovered things that were made ...etc.

There were also studies on the beauty taste in attached poetry in which it is attached to the women and its beauty. After that, I studied the price and the high standards in the poetry itself, which was held and practiced by Arabs during the old days.

This study also discovered a lot of results; firstly, the Mo'allaqat was used during the old Jahiliyya days. I was hanged by the tones that came out of this poetry. The study also discovered that the Mo'allaqat made a full picture of the social growth with all its details, where poets pictured the sides of that life.

المقدمة

تعد المعلقة ظاهرة فريدة من ظواهر الشعر الجاهلي، وقد استرعت اهتمام الدارسين قديماً وحديثاً، وكانت محوراً لدراسات عدة، وذلك لأن شعر المعلقة صورة لمظاهر الحياة الجاهلية بكل ما فيها، ومن هنا فإن هدف الباحثة من هذه الدراسة يتمثل في استجلاء صورة الحياة العربية في العصر الجاهلي.

ولم أجد في حدود اطلاعي دراسة تناولت صور الحياة العربية في العصر الجاهلي نت خلال شعر المعلقة، لذا فإن هذه الدراسة تهدف إلى تحليل مظاهر العمران الاجتماعي في هذه القصائد الطوال ويقصد بالعمران الاجتماعي الجوانب الحضارية، والقبلية، والقيم والمثل العليا، والذوق الجمالي.

وجاءت هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد وأربعة فصول ومقدمة، وخاتمة، تناول التمهيد معلومات مختصرة إلى حد ما عن المعلقة من حيث سبب التسمية وعددها وأصحابها، وكذلك تناولت الباحثة في هذا الجزء دوافع نظم المعلقة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحياة العرب في العصر الجاهلي.

أما الفصل الأول فقد تناول مظاهر الحياة القبلية في شعر المعلقة من حيث الفخر بالقبيلة، وطبيعة الحياة القبلية بما فيها من ترحال وانتقال بحثاً عن الكأ والماء، وصفات زعيم القبيلة، وواجباته، وأهمية النسب والاعتزاز به، وأهمية الأحلاف بين القبائل، والعصبية القبلية وتعميقها في نفسية الجاهلي بسبب ظروف الصحراء من حوله، وبعض أيام العرب وديانتهم.

أما الفصل الثاني فقد تناول مظاهر الحضارة في شعر المعلقة، فأبرزت المعلقة عدداً من مظاهر الحضارة في الحياة الجاهلية، التي تبدو في الأطلال، ومجالس الخمر، وكذلك صناعة بعض الأدوات الحربية وصناعة العطور والملابس، وأدوات الموسيقى وطبيعة المساكن من خيام وأطام، وحصون، وأدوات الكتابة واستخدامها، ومعرفة طرق الإنارة، وكذلك بعض أدوات الطعام والشراب وغيرها من مظاهر حضارية مختلفة شهدتها البيئة الجاهلية.

أما الفصل الثالث فقد تناول الذوق الجمالي في المعلقات، ما يتعلق بالمرأة ومن أدوات زينة وحلي وملابس، ووصف لمحاسنها الجسدية والخلقية وصورة المرأة القينة ودورها ومكانتها، ومدى اهتمام الشعراء بوصفها.

أما الفصل الرابع فقد تناول القيم والمثل العليا في شعر المعلقات، فقد حفل هذا الشعر بعدد من المثل والأخلاق التي افتخر بها شعراء المعلقات وغيرهم من شعراء العصر الجاهلي، حيث دُرست قيم الكرم، والشجاعة والفروسية، والوفاء، والحلم، وغير ذلك.

وتمثل منهج الدراسة في قراءة شعر المعلقات وفق رؤية تكاملية واستقصائية وتحليلية لهذا الشعر لاستجلاء مظاهر العمران الاجتماعي، ولهذا أفادت الدراسة من مناهج متعددة ولعل أهمها المنهج الاجتماعي الذي من خلاله تم تسليط الضوء على طبيعة الحياة الجاهلية بكل تفاصيلها كما مثلها شعر المعلقات، وكذلك أفادت من المنهج التاريخي في الكشف عن الأحداث التاريخية التي وردت في شعرهم، ولها علاقة بمظاهر العمران الاجتماعي.

وقد اعتمدت هذه الدراسة على عدد من المصادر والمراجع أبرزها دواوين شعراء المعلقات، وشرح المعلقات العشر للخطيب التبريزي، وكتاب معلقات العرب لبديوي طبانه، والشعر وأيام العرب لعفيف عبدالرحمن، والغزل في الشعر الجاهلي لأحمد الحوفي، وغيرها، ولم تواجه الباحثة صعوبات باستثناء ما يتعلق بصعوبة الحصول على بعض الدواوين المحققة تحقيقاً علمياً مقبولاً.

وأخيراً أسأل الله أن أكون قد وفقت فيما قدمت من جهد .

تمهيد

تعد المعلقة ظاهرة من الظواهر الأدبية في تاريخ الأدب العربي منذ العصر الجاهلي وحتى عصرنا الحاضر، حيث لم يحظ شعر بعناية القدامى والمحدثين كما حظيت المعلقة، وكذلك لم يُختلف في شعر كما اختلف فيها القدامى والمحدثون، من حيث عددها وأصحابها وسبب تسميتها بالمعلقة، فضلاً عن كونها تشكل ديواناً وسجلاً ودستوراً لحياة العرب في ذلك الوقت بمختلف شؤونهم وجوانب عيشتهم.

والمعلقة هي قصائد طوال لشعراء جاهليين تسمى أحياناً المذاهبات، أو القصائد السبع الطوال، وقد اختلف في سبب تسميتها بالمعلقة¹، فقد أورد ابن عبد ربه في العقد ما نصه: "وقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفصيلها له أن عمدت إلى قصائد تجرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القبايطي المدرجة وعلقها بأستار الكعبة، فمنه يقال مذهب امرئ القيس ومذهب زهير والمذاهبات سبع يقال لها الطوال"²، وقد أيده من المحدثين ناصر الدين الأسد، وخالفه شوقي ضيف، الذي ينظر إلى خبر تعليقها على أنه أشبه بالأسطورة، وأنها سميت بذلك لنفاستها أخذاً بمعنى العلق النفيس.³

وترى الباحثة أن رأي شوقي ضيف هو الأقرب إلى الحقيقة من خبر التعليق على الكعبة الذي شاع في عدد من كتب الأدب، ومع ذلك يبقى لكل باحثٍ رأيه وأدلته التي يقتنع بها.

ولعل من أهم ما يقدح في خبر تعليق هذه القصائد على جدران الكعبة، خلو مصادر القرون الأربعة بعد الإسلام منه، وظهوره متأخراً في المصادر التالية فضلاً عن خلو أخبار فتح مكة من أخبار هذه القصائد، ولو كانت معلقة على جدران الكعبة إبان الفتح لورد ذكرها.⁴

¹ - نبوي، عبدالعزيز، دراسات في الأدب الجاهلي، المختار للنشر، القاهرة، 2002، ص 59.

² - ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت 328)، العقد الفريد، ط1، دار إحياء التراث، بيروت، ج6، 1989، ص 125.

³ - ضيف، شوقي، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط9، ص 34.

⁴ - نبوي، دراسات في الأدب الجاهلي، ص60.

ويمكن القول إن المعلقة كانت وليدة الحياة الجاهلية للعرب آنذاك بمختلف جوانبها وتفصيلها، ناهيك عن أنها جاءت أيضاً معبرة عن معاناة الشعراء بمختلف ظروفهم أينما عاشوا وحلوا أو ارتحلوا، ولهذا كله تعد تلك القصائد شاهدة على إبداع أصحابها من الشعراء الذين وجدوا في الشعر ملاذاً يعبرون فيه عن حياتهم وظروفهم الخاصة، وحياة قبائلهم على وجه العموم، وقد تمثل الإبداع فيها بما حوته من ملامح بلاغية وأسلوبية مؤثرة ومعبرة في الوقت نفسه عن مشاعرهم الإنسانية، بمعنى أن علاقة المعلقة بالحياة الجاهلية وتعبيرها عن حياة العربي في ذلك العصر أسهم في إبداع الشعراء وتصويرهم لواقعهم وواقع حياتهم العربية عن طريق هذا الشعر.

ومما يدل على إبداع هؤلاء وتفوقهم أن معلقاتهم كانت "ثمرة هذا الشعر، أجلها العرب، إذ سحرتهم بلاغتها، وذهلتهم صورها، فتناقلتها القيعان والتلاع، ورددتها حناجر المغنين، وخلدها الزمان فهي معين كل ظامئ، وقصد كل تائه"¹.

فالناظر في هذا الشعر يدرك ما تضمنه من صور ورموز وأخيلة مستمدة من واقع الشعراء وبيئتهم، فكل ما فيه من سمات فنية يكشف عن أثر الحياة العربية في شعر الشعراء، فجعلتهم يبدعون في تصويرها على هذا النحو، فالشاعر الجاهلي في المعلقة وبتوظيفه للصورة والأخيلة كشف عن تصوره لجزيئات الحياة والوجود مستنداً في ذلك على ما ورثه من فكر ورؤيا ثاقبة للأشياء.

وللمعلقة روايات مختلفة أقدمها رواية حماد الراوية وهي عنده سبع قصائد، وقد شرحها الزوزني ت (486هـ) وأصحابها هم (امرؤ القيس، وطرفة ابن العبد، وزهير بن أبي سلمى، ولييد بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم، وعنترة ابن شداد، والحارث بن حلزة).

أما القرشي صاحب جمهرة أشعار العرب فيشير إلى أنها سبع، غير أنه أسقط معلقتين من رواية حماد الراوية أو رواية الزوزني وهما معلقة الحارث ابن حلزة

¹ - الزوزني، أحمد بن أحمد الحسين، شرح المعلقة السبع، دار الإيمان، دمشق، ط1، 1994، ص 5.

وعنتره بن شداد مثبتاً مكانهما معلقتي الأعشى والنابغة، أما رواية التبريزي (ت 505) فهي عشر حيث أضاف معلقة عبيد بن الأبرص¹.

ويمكن أن نلاحظ أن أغلب الروايات اتفقت على أنها سبع معلقات وأصحابها هم: امرؤ القيس، وطرفة بن العبد، وزهير بن أبي سلمى، وعمرو بن كلثوم، وليبد بن ربيعة، والحارث بن حلزة، وعنتره بن شداد.

والناظر في شعر المعلقات يستطيع أن يلحظ أثر البيئة العربية فيها سواء من الناحية الطبيعية من صحارى وجبال وسهول ومن بادية وحاضرة وحيوان، أو من الناحية الأخلاقية من كرم الأخلاق والعادات السائدة في هذا الشعر، وعادات وأعراف اجتماعية، أو ما له علاقة بمظاهر الحياة العربية كلها.

فالشعر الجاهلي بعامة وشعر المعلقات بخاصة حافل بمظاهر الطبيعة الجاهلية المختلفة، وقد كان لهذه المظاهر المتنوعة أثرها البارز في لغة ذلك الشعر ومعانيه وأسلوبه، فعندما كان الشاعر يتحدث في معلقته عن الحيوان أو المكان أو النبات فإنه وظّف هذه الموجودات خير توظيف، وعبر عنها تعبيراً لافتاً مستغلاً جمال التصوير والتشبيه.

لقد نشأ شعراء المعلقات في هذه البيئة بكل ما فيها من قفار موحشة، وأطلال بالية وحيوانات ونباتات، وكل منها كان له أثره البالغ في شعرهم، فتراهم وقفوا على الأطلال ووصفوا الصحراء الواسعة والحيوانات والنباتات وغيره، فجاء شعرهم صورة تعكس تلك البيئة بكل ما فيها.

فقد: "فرضت البداوة على الشاعر التنقل من بقعة إلى بقعة مع قومه الباحثين عن الماء والعشب، فإذا القصيدة رحلة فكرية ذات مراحل ينتقل فيها الشاعر بين آفاق الأفكار يبدأ ببكاء الأطلال ويمضي فيها إلى صفة الطريق الذي يجوبه، والرفيق الذي يصحبه، فإذا مرّ برسم المحبوبة وقف بين يديه خاشعاً خشوع العابد في محرابه، يتغنّى بمربع الصبّا ومفاتيح الحبيبه، ثم يمضي لطيته، فإذا هو ووحش الصحراء رفقه فينعت ناقتة، ويقارنها بما يرى من حمر الوحش والطباء ثم يفخر بنفسه وقومه تباهاً بمحامدهم، مباهاً بأيامهم التي ظهروا فيها على الأعداء باكياً

¹ - نبوي، دراسات في الأدب الجاهلي، ص 60-61.

قتلاهم الذين قضوا في الدفاع عن العرض، وهو راضٍ بهذا التنوع في الموضوعات، والناس عنه راضون كأنهم مجمعون على أن البدواة تعني الترحل وأن الترحل يجب أن يظهر في الأدب ظهوره في الحياة".¹

ولقد صورت تلك المعلقة ذلك الجنس العربي الذي سكن الجزيرة قبل الإسلام، تصويراً يتسم بسمات الصدق والصراحة، وهي الصفات التي كان العرب يحرصون عليها في حياتهم الخاصة، وفي حياتهم العامة التي كانوا يتصفون فيها عن غيرهم من القبائل أو الأمم الغريبة عنهم، فإن أولئك القوم، إن عاشوا أفراداً أو جماعات كانوا أقرب للطبيعة وكانوا على وفاق مع تلك الطبيعة، ولذلك وصف شعرهم هذه الطبيعة، ولذلك وصفها شعرهم بكل ما فيها من أسباب الرغد، وظواهر الخشونة والشظف ولذلك وصف ذلك الشعر بالصدق.²

ولعل هذا الأمر يدعو إلى القول إن هذه المعلقة تشكل في حقيقتها ديواناً وسجلاً حافلاً لحياة العرب آنذاك، فهي مصدر وثيق الصلة بتلك الحياة بطروفيها وبيئتها وحيوانها، وكذلك يمكن القول إنها تعد تراثاً يعتمد الباحثون في معرفة حقيقة ذلك العصر بما فيه الإنسان والمكان والحيوان، وقد يلمح ذلك في ضوء دراسة مناسبة كل معلقة من هذه المعلقة واستقراء أبياتها ودراستها دراسة متأنية، حيث تتضمن أبياتها بما تحويه من رموز وصور وأخيلة ذلك الزمان بكل ما يشتمل عليه من مكونات الحياة العربية.

:"ولما كانت الحياة في الصحراء تلتصق الإنسان بالطبيعة بلا جدار يدفع الريح، ولا سقف يقي من الشمس والمطر، فقد أحس العربي تقلب الأنواء إحساساً حاداً إذا صفعه الرعد العاصف، واقتلعه السيل الجارف، وداعبته النسمة اللعوب وظلله الدوح الوارف، وحملته النخلة السامقة، ووخزة الشوك النافذ، فجاء وصفه للطبيعة حسياً، رقيق التصوير، جلي القسمات ووليد مشاعره ومعاشره"³، وهذا أيضاً لم تغفله المعلقة، لأن فيه معاناة الشعراء وتصوير مشاعرهم.

¹ - ظليمات، غازي، والأشقر، عارف، الأدب الجاهلي، دار الفكر، دمشق، 2010، ص 37.

² - طبانة، بدوي، معلقة العرب، دار المريخ، الرياض، 1984، ص 167.

³ - ظليمات، والأشقر، الأدب الجاهلي، ص 37.

وليس من العمران في البادية إلا الخيام المنصوبة يطوف حولها ويتغنى سكانها يدور بها نؤي (كجذم الحوض لم يتثلّم) يحول دون تدفق المطر، أمامه موقد نار وكية ماء تطلع الشمس فتتشر أشعتها على كل مكان لا يعترض طريقها حائط يحيط ولا بناء مبنى، ويهطل المطر فتلقأ الأرض بأجمعها تبتلع منه ما تشاء وتستقي ما تشاء، لا يستوقفه حاجز، ولا يجبر به أنبوب، ولا تصرّمه قناة، تتصب الخيام ووتقلع إلى حيث يجدون موطناً جديداً، ينتجعون فيه الماء والكأ. وما وجود بعض القرى في الشمال كمكة، ويثرب والطائف بخليق أن ينفى قطر الفضاء الأوسع من اللاعمران.¹

فهذه طبيعة الحياة العربية في ذلك العصر وطريقة حياتهم، إلا أن هناك بعض البيئات التي عرفت التحضر والاستقرار، كتلك التي ظهر فيها جانب من العمران الذي فرضته عليهم طبيعة المكان.

إن الصحراء التي فرضت على العرب الترحل، فرضت عليهم العيش في المجتمع القبلي بوجهه الاجتماعي والسياسي، ثم فرضت على أدبهم سمات هذا المجتمع، وقد ترك هذا النظام القبلي أثره في الشعر، إذ دفع الشعراء إلى تسعير الخصومة بين القبائل، وخصت القصص والأمثال بتمجيد البطولة، وجهر كل ذي لسن وبيان بالدعوة إلى الثأر، حتى ضج أدب الجاهليين بقعقة السيوف وتفجرت فيه صيحات المغامرة والمنافرة، وزخرت بفيض من المعاني والصور الحماسية وضم بين جنبه تاريخاً غير رسمي يقيس فيه الأحفاد نخوة الأجداد، ويتعهد الشعراء بالتجديد كلما رث، وبالاحترام كلما خبا، إذ ينفخون فيه رفع الحمية ويؤثرون الغضب الأرعن على الحكمة والرّزانة، ولم يكن النظام القبلي الشكل السياسي وحده، فقد شهدت إمارات العرب، إمارات صغيرة كإمارتي الغساسنة والمناذرة على تخوم الروم والفرس، وفي هاتين الإمارتين لقي شعراء القبائل منتجاً يقصدونه وسوقاً تروج فيه بضاعتهم، ومستبقاً يتنافس فيه الفحول من شعراء الصحراء، كالنابغة

¹ - البستاني، بطرس، الشعر الجاهلي، مطابع مصر العدل الجديدة، 1981، ص 25.

والأعشى، فلا يكاد الفحل فيهم يجري فيه غلوة أو غلوتين حتى يخلع لأمة الحرب، ويستلين خلع الأمراء.¹

ولما كان الشاعر جزءاً لا يتجزأ من منظومة القبيلة فإنه كان حريصاً على كل ما له علاقة بقبيلته، وبخاصة فيما يتعلق بأيامها وحروبها، كما يظهر ذلك في عدد لا بأس به من المعلقة.

والانسان الجاهلي لا يبتعد انتبار في المعنى أحياناً، لا يبتعد مجتمعه أبعد من قبيلته، يتعصب لها ما دام يرى في ذلك خيراً ونفعاً له، كعصبية عمرو بن كلثوم لبني تغلب، وعصبية ابن حنزة لبكر، ويتخلى عنها وينكرها إذا لحق به أي ضيم، كما فعل النابغة وطرفة، لا يفهم معنى للوحدة القومية ولا يحسن أن يجتمع أمة واحدة، فتشعره متصلاً بقبيلته يدافع عنها ويفخر بالأمة العربية، لأن حياته الاجتماعية وطنه لم تزل على نظرتها الأولى، لا تتعدى الأسرة والعشيرة، في ترحل لا يستقر يحمل وطنه على ظهر بغيره كما يحمل أمتعته، فكل مكان له منزل وفي كل منزل حنين وذكريات وتحيات للرسوم والأطال.²

ولقد أثرت الحياة الجاهلية بظروفها المختلفة بالأدب فقد جعلت أمثاله، وقصصه، وشعره، والمعاني المتعلقة بالخصب والجذب والري، والجفاف والصيد والطرْد والجواد والجمل، حتى أصبحت الناقة تنافس المرأة في مكانتها من قلب الشاعر وفي حظها من تصويره.³

وصورت المعلقة الحياة الجاهلية بكل ما فيها من حيوان، ونبات، وأمطار، وسيول، وجبال ووديان، وحياة الرعي والترحال من مكان إلى مكان الأطال البالية، ووصف رحلة التنقل، والمرأة، والحياة القبلية، هذا كله يدل على إبداع الشعراء في القصائد بما فيها من معانٍ يصف ما سبق جميعه.

ومعاني المعلقة بسيطة تعود للحياة البسيطة التي عاشوا فيها، فكانت مرآة انعكست عليها مظاهر الحياة الجاهلية، فظهرت هضابها وجبالها ووديانها وعيونها، وصور سمائها ونجومها وسحبها وأمطارها وأنواع نباتها وصنوف حيوانها، وحياة

¹ - طليعات، والاشقر، الأدب الجاهلي، ص 38-39.

² - اليستاني، الشعر الجاهلي، ص 21.

³ - طليعات، والاشقر، الأدب الجاهلي، ص 40.

الحروب التي خاضوها بخيلها وسيوفها ورماحها ودمائها، ولم يخرج ذلك الشعر عن تلك المقاصد التي قصدوا إليها والمشاهد التي وقعت عيونهم عليها، كما أعربوا عن عواطفهم، وانفعالاتهم وغيره من شعور اللذة والألم، والرضا والسخط والحب والبعض، لذلك كان هذا الشعر واقعياً عبر عن الحقيقة أصدق تعبير، وقد خلا هذا الشعر من المبالغات الممقوته، والدعاوي الباطلة، ولم يصف إلا ما رآه ولم يتفاعل الى بما عرفه، ولم يؤلف صور الخيال إلا من مجموع ما عرف، مع البعد عن الإسراف الذي تلاحظه في أشعار المتأخرين الذين عاشوا عصور الحضارة.¹

¹ - طبائنه، معلقات العرب، ص 322.

الفصل الأول

مظاهر الحياة القبلية

تعد القبيلة الوحدة الاجتماعية التي تربط الأفراد بعضهم ببعض في المجتمع الجاهلي، ولذلك كان لهذه الوحدة الاجتماعية أهمية كبرى في تكوين نظام اجتماعي له أبعاده السياسية والفكرية والإقتصادية.

ويؤمن أفراد القبيلة بوجود رابطة تجمعهم تقوم على أساس وحدة الدم المتمثلة في انتمائهم لأب واحد ووحدة الجماعة، وهذه المجموعة تعمل في اتجاه واحد، هو مصلحة القبيلة المشتركة، فهي وحدة سياسية قائمة بذاتها في العصر الجاهلي، كما أنها وحدة اجتماعية أيضاً لها نظمها وأعرافها وتقاليدها.¹

ولذلك بلغت القبيلة في العصر الجاهلي بأبعادها المختلفة مكانة مرموقة في القصيدة الجاهلية عامة والمعلقات خاصة، حيث كانت حافزاً للشعراء يتحدثون عن مجدها وقوتها، وما يتمتع به الزعماء من قوة وشجاعة ونبل أخلاق ومكانة رفيعة، حيث كان لكل قبيلة شعراؤها الذي يفخرون بها ويدافعون عنها بلغة الخطاب الشعري، تلك اللغة المؤثرة في نفوس الناس.

ولقد تعددت صور الحياة القبلية في المعلقات، من الفخر بها والعصبية لها، وذكر لأيامها وحروبها، والانتقال إلى مواطن الكلاً والماء، وحال الديار بعد الرحيل، يمكن تمثل ذلك في ضوء دراسة الجزئيات الآتية:

1.1 الفخر بالقبيلة

شغلت القبيلة الشاعر الجاهلي حيث جاء الفخر بها من أهم الأمور التي جعلته يقول الشعر أحياناً، ولهذا السبب كانت القبيلة تقيم الولائم والاحتفالات عند نبوغ شاعر فيها.

ومن صور الفخر بالقبيلة، الفخر بجنسها ووحدتها في نفوس أبنائها، فقد آمنوا أنهم أبناء جنس ممتاز، لا تفضلهم قبيلة أخرى، أبأؤهم أشرف آباء، وأمهاتهم أكرم

¹ - عبدالرحمن، عفيف، الشعر وأيام العرب - الفخر العربي، بيروت د.ط، د.ت، ص 18.

أمهات، وهم أجدر الناس بأن يكونوا خير الناس على نحو فخر عمرو بن كلثوم
بقبيلة تغلب¹

حُدِّيَا النَّاسِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً مُقَارَعَةً بَنِيهِمْ عَنْ بَنِينَا²

وفي معلقته عدد الشاعر مفاخر قومه التغلبيين، ودافع عن حقوقهم ورد
مزاعم أعدائهم، فعظمها بنو تغلب، وروتها صغارهم وكبارهم³، والمعاني التي
تضمنها فخر عمرو بن كلثوم تكاد تكون واحدة، حيث تمثلت في الفروسية وما ينجم
عنها من خوض المعارك وقهر الأعداء وإياء الخضوع للملوك وحماية الطعائن
وإرث المجد والسيادة كابراً عن كابر، وبالتالي فقبيلته أعظم القبائل، وأعزها، بل
هي في رأيه أعز من في الدنيا جميعاً، وقد استعرض الشاعر عزة قومه
وشجاعتهم⁴، حيث يقول: ⁵

أَبَا هُنْدٍ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا	وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرَكَ الْيَقِينَا
بِأَنَّا نُورِدُ الرَّايَاتِ بِيضاً	وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قَدْ رُوِينَا
وَأَيَّامٍ لَنَا غُرٌّ طَوَالٍ	عَصِينَا الْمَلِكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا
وَسَيِّدٍ مَعْشَرٍ قَدْ تَوَجَّوْهُ	بِتَاجِ الْمَلِكِ يَحْمِي الْمُحْجَرِينَا
تَرْكُنَا الْخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ	مُقَلَّدَةً أَعْنَتَهَا صُفُونَا

وتعد معلقة عمرو بن كلثوم من أبرز المعلقات التي يظهر فيها الفخر بالقبيلة
بشكل كبير، ويبدو أن مرد ذلك أنها قيلت لهذا الغرض وتصوير حرب البسوس التي
دارت بين قبيلة تغلب وقبيلة بكر واستمرت أربعين عاماً.

ومن صور الفخر القبلي قول الحارث بن حلزة في قبيلة بكر رداً على عمرو
بن كلثوم، فمعلقته زاخرة بصور الفخر القبلي ومنها: ⁶

إِنَّ إِخْوَانَنَا الْأَرَاقِمَ يَغْلُو نَ عَلَيْنَا فِي قَبِيلِهِمْ إِحْقَاءُ

¹ - النعيمي، القبيلة في الشعر الجاهلي، ص 86.

² - عمرو بن كلثوم: الديوان، اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط1، 1991، ص77.

³ - عمرو بن كلثوم: الديوان، المصدر نفسه، ص 17.

⁴ - العتوم، علي حسين، المعلقات العشر، رسائل دار المصطفى للنشر، 1980، ص 272.

⁵ - عمرو بن كلثوم: الديوان، ص 71-72.

⁶ - الحارث بن حلزة، (ت580هـ) ديوان شعر الحارث، تحقيق ناصر الدين الأسد، دار صادر
بيروت، 1973، ص 23.

يَخْلُطُونَ الْبَرِيَّاءَ مِنَّا بِذِي الذَّنَبِ بِ وَلَا يَنْفَعُ الْخَلِيَّاءَ الْخَلَاءُ
زَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ الْعَيْنَ رَمُومًا لَنَا وَأَنَا الْوَلَاءُ

وفي معلقة لبب بن ربيعة صورة أخرى من الفخر القبلي حيث كان سفير قومه لدى الملوك الذين اجتمعت عندهم وفود القبائل من شتى الجهات، وكانوا يتناذرون بالثارات كأنهم الجن في مقاضياتهم لبعضهم بعضاً، وفي هذه المقامة يتطلع فيها الجميع للتبرير ويخشون الإخفاق، ردَّ الشاعر على كل من حاول أن ينقص قومه وفخره بهم على الجميع، ومن دعاوي المبطلين فقيبلته أكرم القبائل¹ يقول: ²

وَكَثِيرَةٌ غُرَبَاؤُهَا مَجْهُولَةٌ تُرْجَى الْعَطَايَا وَيُخْشَى ذَامُهَا
غَلَبَ تَشَذُّرُ بِالذُّخُولِ كَأَنَّهَا جِنُّ الْبَدِيِّ رَوَاسِيًا أَقْدَامُهَا
أَنْكَرْتُ بَاطِلَهَا وَبُؤْتُ بِحَقِّهَا عِنْدِي وَلَمْ يَقْفَرْ عَلَيَّ كِرَامُهَا

ويكثر الأعشى من الفخر بقبيلته، وهو يجمع لها ضروب المفاخر والمناقب، التي كانوا يفخرون بها في الجاهلية من الجود في الجذب، والشجاعة في الحرب، والرعي في المكان المخوف، وإغاثة المستصرخ³، ويبدو فخره كذلك حول انتصاراتهم في المعارك على القبائل التي حاربوها كبني أسد وبني قشير وبني عبدالله، ويعرض هذه الانتصارات الشاهدة على فضل قبيلته بني قيس بن ثعلبة وبني أسد الذين ابتدوا بالعدوان⁴، يقول: ⁵

سَأَلُ بَنِي أَسَدٍ عَنَّا فَقَدْ عِلِمُوا أَنْ سَوْفَ يَأْتِيكَ مِنْ أُنْبَانِنَا شَكْلُ
وَاسْأَلْ قَشِيرًا وَعَبْدَ اللَّهِ كُلَّهُمْ وَاسْأَلْ رَبِيعَةً عَنَّا كَيْفَ نَفْتَعُلُ
إِنَّا نَقَاتْلُهُمْ ثُمَّ نَقْتَلُهُمْ عِنْدَ الْلِقَاءِ وَإِنْ جَارُوا وَإِنْ جَهَلُوا
نَحْنُ الْفَوَارِسُ يَوْمَ الْحِنُوِّ ضَاحِيَةً جَنْبِي فُطَيْمَةٌ لَا مِيلَ وَلَا عُزْلُ
قَالُوا الطَّرَادُ فَقَلْنَا تِلْكَ عَادَتُنَا أَوْ تَنْزَلُونَ فَإِنَّا مَعَشَرٌ نَزَلُ

¹ - العتوم، المعلقات العشر، ص 293.

² - لبب بن ربيعة العامري، (ت41هـ)، الديوان، شرح وتحقيق، إحسان عباس، التراث العربي، الكويت، ط2، 1962، ص 317-318.

³ - ضيف، العصر الجاهلي، ص 352.

⁴ - العتوم، المعلقات العشر، ص 291.

⁵ - الأعشى، أبو بصير ميمون بن قيس، (ت7هـ): الديوان، شرح وتعليق محمد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، 1950، ص 134.

قد نخضبُ العيرَ في مكنونِ فائلِهِ و قد يشيظُ على أرماحنا البطلُ

2.1 طبيعة الحياة القبلية:

أسهمت طبيعة الصحراء وما فيها من قسوة وجذب في تكوين القبيلة التي تبحث عن الاستقرار والأرض، ويقول عفيف عبدالرحمن في ذلك "إذا استثنينا تلك المجتمعات المستقرة التي توفرت لها أسباب العيش، كدولتي المناذرة والغساسنة ومجتمع المدينة وقريش وثقيف، فإن المجتمعات التي عاشت في الجزيرة العربية، عاشت حياة قبلية لم تنعم إلا ببعض الإستقرار دأبها التنقل سعياً وراء الكأ والماء، والأسباب التي دعت إلى تكوين القبيلة، وإلى أن تكون الوحدة الاجتماعية في ذلك العصر يمكن ردها إلى اضطراب الحياة المادية وعدم استقرارها وإلى عدم قيام حكومة تحفظ للناس أرواحهم وممتلكاتهم وتطعم الجائع وتغيث المنكوب، وإلى قسوة الحياة في تلك الصحراء المترامية الأطراف وتعد نمطاً ملائماً لمقتضيات البيئة الصحراوية"¹.

ولعل ظروف الصحراء وما يحيط بها من ظلمة ووحشة وجذب جعلت الإنسان الجاهلي يفكر بالعيش بنظام جماعات وتكوين القبائل لمواجهة هذه الظروف. والقبيلة هي الأسرة الكبرى في المجتمع الجاهلي، وتكاد تكون اللبنة الأولى في بنائه، وذلك لأن انتماء الأفراد إلى قبائلهم أكثر من انتمائهم إلى أسرهم، فالمجتمع الجاهلي، مجتمع قبلي بالدرجة الأولى، ويتكون هذا المجتمع من عدة قبائل لا تشكل كتلة واحدة وذلك لضعف الروابط بينها بين الحين والآخر، ولذا كانت كل قبيلة تشكل كياناً مستقلاً وكأنها دولة قائمة بذاتها، وعلى رأسها أحد من أبنائها ممن يتصف بأسمى صفات المروءة، هو شيخ القبيلة، وتحت تصرفه جميع أفرادها ممن يحمل السلاح وهم فرسانها وحماةها، وكان لكل قبيلة موطن تمارس فيه سلطاتها، تسميه الحمى، وتدافع عنه بكل ما أوتيت به من قوة.²

¹ - عبدالرحمن، الشعر أيام العرب، ص 17-18.

² - العتوم، علي حسين، الشعر الجاهلي والحياة العربية، مجلة البلقاء، العلوم الانسانية والاجتماعية، مجلد (9)، عدد 1، 2002، ص 22.

3.1 سيد القبيلة:

وسيد القبيلة له حقوق وعليه واجبات فمن حقوقه الاحترام والطاعة ومن واجباته عقد الصلح وعقد المحالفات، وتحاشي الظلم وتحمل أكبر قسط من جرائم القبيلة¹، و يقسم الغنائم فيعطي الحقوق ويهضم حق نفسه، وإذا أتت الحرب شرف قومه ساحتها بالبطولة، أما إذا كان الأمر سلمياً فهم أهل الرأي السديد وديارهم ربيع للمجاور في قحط الأيام فهم العشيرة المتماسكة والمترابطة².

وتتضح بعض واجبات سيد القبيلة وصورته من خلال معلقة لبيد حيث يقول:³

إِنَّا إِذَا التَقَتِ الْمَجَامِعُ لَمْ يَزَلْ	مِنَّا لِرِزَازٍ عَظِيمَةٍ جَشَامُهَا
وَمَقْسَمٌ يُعْطِي الْعَشِيرَةَ حَقَّهَا	وَمُعْذَمِرٌ لِحُقُوقِهَا هَضَامُهَا
فَضْلاً وَذُو كَرَمٍ يُعِينُ عَلَى النَّدَى	سَمَحٌ كَسُوبُ رَغَائِبِ غَنَامُهَا
مِنْ مَعَشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ	وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا

لقد بين لبيد في معلقته واجبات سيد القبيلة في تقسيم الغنائم بعد المعركة، وكذلك السعي في الصلح للقبيلة إذا حدث أي شجار، ويتضح هذا المعنى أيضاً في معلقة زهير بن أبي سلمى الذي يمدح فيها سيدي القوم هرم بن سنان والحارث ابن عوف الذين قاما بالصلح بين قبيلتي عبس وذبيان، ودفع ديات القتلى بعد الحرب الطويلة المعروفة بداحس والغبراء⁴، فصور مكانة سيد القبيلة ودوره في دفع ديات القتلى، سعياً للصلح:⁵

سَعَى سَاعِيَا غِيْظَ بِنِ مُرَّةٍ بَعْدَهَا	تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ بِالْدَّمِ
فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ	رِجَالُ بَنُوهُ مِنْ فَرِيْشٍ وَجُرْهُمِ
يَمِيناً لِنَعْمِ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا	عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمِ

¹ - عبدالرحمن، الشعر وأيام العرب، ص 21.

² - صديق، حسن بشير، المعلقات السبع، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ط1، 1998، ص 89.

³ - لبيد: الديوان ص 320.

⁴ - طبانه، معلقات العرب، ص 126-127.

⁵ - زهير بن أبي سلمى المزني، (ت 13 هـ)، شرح الديوان، صنعة الإمام ثعلب، الدار القومية، القاهرة، 964، ص 305-306.

وَقَدْ قُلْتُمَا إِنَّ نُدْرِكَ السَّلْمَ وَاسِعاً بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْقَوْلِ نَسْلَمُ
فَأَصْبَحْتُمَا يُحْدَى فِيهِمْ مِنْ تِلَادِكُمْ مَغَانِمُ شَتَّى مِنْ إِفَالٍ مُزَنَّمُ

لقد أدرك السيدان اشتعال نار الحرب من جديد بدفع ديات القتلى مما أطفأ نار
النار بين القبيلتين، ولعل هذه الصورة لسيد القبيلة من أعظم الصور التي وردت
في الشعر تجسيد شخصية السيد الحليم الذي ينشد الاستقرار لقبيلته والقبائل
المجاورة.

4.1 أهمية النسب في القبيلة:

والأسر التي تعيش في القبيلة تنشأ بينها أواصر القرابة القائمة على الابوة
والعمومة الخؤولة، ليتحقق التعاون في الحياة، وكان من حسن حظ الفرد أن يكون له
أعمام وأخوال كثيرون، وبخاصة إذا كانوا من أصحاب الجاه والسيادة
لأنه سيعتز بهم ويفتخر بكثرتهم، وكان العربي يقول، (رجل معمم مخول) أي كثير
الأعمام والأخوال،¹ وفي ذلك يقول امرؤ القيس:²

فَأَذْبَرْنَ كَالْجَزَعِ الْمُفْصَّلِ بَيْنَهُ بِجَيْدٍ مُعَمٍّ فِي الْعَشِيرَةِ مُخُولِ

حيث يبرز الشاعر أهمية الأعمام والأخوال في القبيلة العربية، لأن ذلك يؤثر
في نسبه، فالعربي يتباهى بنسبه من أعمامه وأخواله، وفقاً لذلك كانوا يتخيرون
زوجاتهم من أشرف القبائل، تحرياً للنسب الرفيع.

ولم تكن الأم نقيصة بحق القبيلة أو الأفراد بقدر ما هي تعبير عن علو قدر
الأم وارتفاع منزلتها بين الناس، ولا أدل على ذلك من انتساب الملوك والسادة
والشعراء وسائر العرب إليها، ومن هؤلاء "عمرو بن المنذر" فقد نسب إلى أمه هند
وتردد نسبه هذا على أفواه العرب والشعراء.³

ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم في عمرو بن هند:⁴

بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمَرُو بَنَ هِنْدٍ تُطِيعُ بَنَا الْوُشَاةِ وَتَرْدَرِيْنَا

¹ - النعيمي، القبيلة في الشعر الجاهلي، ص 49.

² - امرؤ القيس، (ت545): الديوان، محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر، ص22.

³ - النعيمي، القبيلة في الشعر الجاهلي، ص 50.

⁴ - عمرو بن كلثوم: الديوان ص 79.

بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمَرُوْا بَنَ هِنْدٍ تَرَى أَنَا نَكُوْنَ الْاِرْذَلِيْنَا

ولقد نسب الملك لأمه وهذا ليس من العيب والانتقاص في العرف القبلي.

وكل قبيلة تتكون من عدد من الأفراد يقسمون إلى طبقات وفق صلتهم بالقبيلة، وهذه الطبقات: الصرحاء وهم أبناء القبيلة، والحلفاء المتحالفون مع القبيلة، والموالي، والعبيد وهم الخدم، ولكل من هذه الطبقات حقوق وواجبات، إلا أنهم يشتركون في بعضها، وتميز الصرحاء عن باقي الطبقات بامتيازات يتمتعون بها، إلا أنهم ليسوا مرتبة واحدة، لأن البيت والعدد أمران بارزان في كيان القبيلة، وكان عمل الرقيق مقتصرًا على الرعي وخدمة بيوت الصرحاء من أبناء القبيلة، ولا يلحق بنسبها إلا إذا قدم لها عملاً جليلاً، كأن ينقذها من هزيمة محققة بشجاعته كما فعل (عنتر بن شداد)، وكان كل فرد في القبيلة يعرف نسبه ونسب أسرته وقبيلته ويفتخر به ويحفظه أبناؤه وأحفاده.¹

وفي القبيلة عقد اجتماعي يعرف برابطة الدم في ظله تكون القبيلة في سبيل الفرد والفرد في سبيل القبيلة، كلاهما جزء لا يتجزأ عن الآخر²، وأكد هذا العقد الجاحظ بقوله: "والعرب إذا وجدت رجلاً من القبيلة قد أتى فعلاً قبيحاً ألزمت ذلك القبيلة كلّها، كما تمدح القبيلة بفعل جميل، وإن لم يكن ذلك إلا بواحد منها".³

وتتمسك القبيلة بأفرادها ما داموا متمسكين بقانونها العرفي، فإذا ما بدر منه ما لا ترضاه القبيلة ولم تتعارف عليه ما يمس سمعتها أو شرفها أو يمس أي فرد فيها، كان جزاء هذا الخارج على قوانينها الخلع، والخلع يتبع طرد الفرد من حماها، وبتجريده وحرمانه من حماية القبيلة له وتركه فريسة للصحراء⁴، ولذلك يتحاشى الأفراد أن يقوموا بفعل يلحق العار بالقبيلة، فهي تظل متمسكة بكل فرد من أفرادها تحافظ عليه وترعاه وتنصره ما دام يسير وفق عرفها، فإذا ما بدر منه سلوك لا

¹ - عبدالرحمن، الشعر وأيام العرب، ص 19.

² - النعيمي، القبيلة في الشعر الجاهلي، ص 85.

³ - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البخلاء، أحمد العوامري، علي الجارم، دار الكتب العلمية،

1991، بيروت، ص 243.

⁴ - عبدالرحمن، الشعر وأيام العرب، ص 33.

ترضاه أو اعتاد أموراً لا توافق عليها عزلته¹، وهذا ما عبر عنه طرفة ابن العبد بقوله: ²

وَمَا زَالَ تَشْرَابِي الْخُمُورَ وَلَذَّتِي وَيَبْعِي وَإِنْفَاقِي طَرِيقِي وَمُتَلَدِي
إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا وَأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعَبَّدِ
لقد عبّر طرفة عن مصير من يخرج عن قوانين القبيلة وأعرافها، وتمادى سفهه وانهماكه في الملذات حتى خلعتة قبيلته، ولعل ما مضى يبرز أهمية النسب للقبيلة.

ويشترك أفراد القبيلة جميعاً في الخير والشر والأفراح والأتراح، فيقول المثل العربي "في الجريرة تشترك العشيرة"³ إذا أصاب العشيرة مكروه هبوا جميعاً لنجدها لأن انتماءهم للقبيلة لا يضاهيه انتماء آخر، ولعل لبيد بين ربيعة عبر عن واقع الانتماء القبلي بقوله: ⁴

وَهُمُ السُّعَاةُ إِذَا الْعَشِيرَةُ أَفْطَعَتْ وَهُمْ فَوَارِسُهَا وَهُمْ حُكَّامُهَا

5.1 الأحلاف القبلية:

تعد الأحلاف مظهراً من المظاهر القبلية التي توضح طبيعة العلاقات بين القبائل وتنظيم شؤونها.

والحلف تعهد بين القوم على الصداقة، والصديق يحلف لصاحبه ألا يغدر به، ففي الحلف قسم وتعهد بالصداقة والأمانة، وألا يغدر الحليف بحليفه، وقد كان العرب في الجاهلية يعقدون معاهداتهم، فقريش كانت تتحالف عند الكعبة، ومعنى هذا أنهم يقسمون بمعبوداتهم على حفظ عهدهم، فكانوا يجرون محالفاتهم في أماكنهم المقدسة، ثم يأتون أحياناً بطقوس وإشارات تؤكد هذا الحلف، وتوثق من رباطه، فيذبحون قربان ويغمسون أيدهم في دمه، ثم يمسحون بدمائه المذبح فيشهدون بذلك معبودهم

¹ - النعيمي، القبيلة في الشعر الجاهلي، ص 85.

² - طرفة بن العبد، طرفة بن العبد بن سفيان البكري، (ت564م)، الديوان، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1975، ص 33.

³ - الميداني، أبو الفضل، (ت518)، مجمع الأمثال، مكتبة دار الحياة، بيروت، 1961، ج2، ص 20.

⁴ - لبيد: الديوان، ص 318.

على صدق حلفهم، ويأكلون من لحم هذا القربان، وهذه الشعائر رمز توثيق الصلات وربط قوى الوحدة بين الفريقين، ثم يذكر موضوع المحالفة والمدة التي يتفق عليها الطرفان، وأحياناً تكتب هذه المحالفات في صحف كالتي كانت بين بكر وتغلب¹، وقد أشار الحارث بن حلزة في معلقته إلى ذلك حيث قال:²

واذكروا حلف ذي المجاز وما قُدِّمَ فيه العُهودُ والكفلاءُ
حَذَرَ الجورِ والتَّعديِّ وهل يُنْقَضُ ما في المَهَارِقِ الأهواءُ
وَاعْلَمُوا أَنَّنَا وَإِيَّاكُمْ فِيهِ مَا اشْتَرَطْنَا يَوْمَ احْتَلَفْنَا سَوَاءُ

وتسعى القبائل للمحالفات طلباً للأمن ودفعاً للعدوان وإيثاراً للعافية، ومع ذلك فلم تستطع حقن الدماء أحياناً، ولقد لعبت الأحلاف دوراً كبيراً في تكوين القبائل، إذ كانت تتضمن العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية لتحميها وترد العدوان عنها³، وقد بين زهير الحلف الذي جرى بين عبس وذبيان أثر الحرب، وفي ذلك قوله:⁴

أَلَا أَبْلِغِ الْأَحْلَافَ عَنِّي رِسَالَةً وَذُبْيَانَ هَلْ أَقْسَمْتُمْ كُلَّ مُقْسَمٍ
فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفْسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمَ اللَّهُ يَعْلَمَ

6.1 العصبية القبلية:

والعصبية كما عرفها شوقي ضيف "الرباط الذي يوثق الصلة بين أفراد القبيلة"⁵، وهي رابطة أو رباط يعتصب به كل أفراد القبيلة فتتوثق صلاتهم ببعضهم البعض، وينصر الفرد منهم أخاه في جميع الحالات ويتعصب له، وأنهم إذا ما ظلم أخوهم أو ظلم فإنهم يهبون لنجدته، وكما أن النظام القبلي نظام ملائم لطبيعة الجزيرة العربية، ف كذلك العصبية ضرورية للمجتمع القبلي حيث يتعرض الإنسان الجاهلي لأعداء كثيرين، والناس مفطورون على المطامع ولا وازع يردعهم، ودأبهم التنازع، فلا بقاء للقبيلة إلا ببعضها⁶، والعصبية نزعة طبيعية في البشر على ذوي

¹ - العشماوي، محمد زكي، النابغة الذبياني، دار النهضة، بيروت، 1980، ص 150.

² - الحارث بن حلزة، الديوان، ص 36.

³ - ضيف، العصر الجاهلي، 58.

⁴ - زهير: الديوان ص 107

⁵ - ضيف، العصر الجاهلي، 57.

⁶ - عبدالرحمن، الشعر وأيام العرب، ص 39.

القربى وأهل المحارم أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة، فإن العزيز يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه، والعداء عليه، ويود لو يحول بينه وبين ما يصيبهم من المخاطب والمهالك¹، وظهور العصبية في المجتمع الجاهلي يلبي حاجة كامنة في نفس العربي، ويروي ظمأه إلى التعلق بمثل أعلى يعيش من أجله ويعكس توقه إلى عقيدة يؤمن بها.²

وللعصبية القبلية تبعات، فهي تشعر كل فرد في القبيلة أنه مسؤول عن الجماعة كلها، كما تشعر القبيلة أنها مسؤولة عن كل من ينتمي إليها، وهذه التبعات بمثابة عهد غير مكتوب يفرض على أبناء القبيلة التناصر والتآزر والسعي في سبيل منفعة القبيلة في جميع الأحوال، ويفرض عليهم تبني شعار: الفرد في سبيل القبيلة والقبيلة في سبيل الفرد.³

ومن أبرز مظاهر العصبية القبلية ذلك التماسك الوثيق الذي نراه بين أبناء القبيلة الواحدة، والتعاون الذي يسود حياتهم، وحرص كل فرد في القبيلة على سيادتها وكرامتها، والتفاني في سبيل الحفاظ على سمعتها وصونها من كل عبث⁴، وهذا الالتزام من القبيلة نحو أبنائها يوجب عليه العصبية لهم والتغني بأمجادها. وهناك أمثلة متعددة من الشعر الجاهلي تبين هذه العصبية وتبعاتها ومن ذلك قول الحارث بن حلزة لبطن من بطون بكر بيدي عصبية له حيث يساوي سائر بطون بكر بالقبائل العربية، ويتحدث عن بني حنيفة وبني شيبان، وكأنهم بالنسبة له ولقومه قبيلة أخرى لا يؤخذون بجرائرها⁵، فيقول:⁶

أَيَّةُ شَارِقِ الشَّقِيقَةِ إِذْ جَا عَتَّ مَعَدُّ لِكُلِّ حَيٍّ لَوَاءُ
حَوْلَ قَيْسٍ مُسْتَلْتَمِينَ بِكَبْشٍ قَرَضِيَّ كَأَنَّهُ عَبْلَاءُ

¹ - ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون (ت808)، المقدمة، دار الكتاب المصري، القاهرة، وادار الكتاب اللبناني، بيروت، 1999. ص 142.
² - النص، إحسان، العصبية وأثرها في الشعر الأموي، دار اليقظة، دمشق، 1963، ص 139.
³ - عبدالرحمن، الشعر وأيام العرب، ص 39.
⁴ - النص، العصبية وأثرها في الشعر الأموي، ص 176.
⁵ - نبوي، عبدالعزيز، شرح معلقتي طرفة بن العبد والحارث بن حلزة، الصدر لخدمات الطباعة، مدينة نصر، ط1، 1989، ص 54.
⁶ - الحارث بن حلزة: الديوان، ص 32.

وَصَيَّتْ مِنَ الْعَوَاتِكِ لَا تَتَّ - هَاهُ إِلَّا مُبَيَّضَةٌ رَعْلَاءُ
يتعصب الشاعر إلى قومه ويدافع عنهم، ولكن إذا حدث بين القوم نزاع فإن
ولاءه وعصبية تكون للفرع أو البطن من القبيلة الذي ينتمي إليه، فقد تتفرق القبيلة
ويصبح كل بطن فيها قبيلة منفصلة وبذلك يختلف الانتماء والعصبية.

وطرفة بن العبد رغم خلع قبيلته له والظروف المحيطة بنشأته من تقلب مع
أمه وأخويه بعد وفاة أبيه، وسوء معاملة أعمامه حين حرموه من ميراثهم، كون تلك
الشخصية الحساسة القلقة التي تأرجحت بين التمرد والانتماء¹، ويعزز ثقة قومه به
إنما يؤكد انتماءه القبلي، فيعلن ارتباطه بالقبيلة التي ينصرها ويدافع عنها ويشارك
القبيلة في مشكلاتها وهمومها.²

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى خِلْتُ أَنَّنِي - عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَدَّدْ
ولست بحلال التلاع مخافة - ولكن متى يسترفد القوم أرفد³
والعصبية الجاهلية تجري قي دم طرفة رغم ما تعرض من خلع وظلم
الأقارب الذي تسببت به قبيلته، لكنه بقي منتبهاً للقبيلة ومدافعاً عنها في حالة الحرب
وهذا حال غيره من أبناء القبيلة.

والأعشى من الشعراء الذين أثرت فيه القبيلة، فهو شاعرها الذي نشأ
وترعرع في أحضانها، فكنّ لها كل الانتماء والولاء، من ذلك ما جاء في هجاء
الأعشى ليزيد بن مسهر الشيباني، الذي زجره عن الحقد الذي أكل الحقد قلبه فسلى
للنيل من قبيلة الأعشى، يقول:⁴

بلغ يزيد بني شيبان مأكلة	أبا ثبيت أما تتفك تأكل
ألست منتهياً عن نحت أثلتا	ولست ضائرها ما أطت الإبل
كناطح صخرة يوماً ليفلقها	فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل
تغري بنا رهط مسعود وإخوته	يوم اللقاء فتردي ثم تعزل

¹ - النعيمي، القبيلة في الشعر الجاهلي، ص 233.

² - أبوسويلم، أنور، قراءة في معلقة طرفة، مجلة جامعة الملك سعود مجلد 3، 1992، ص 378.

³ - طرفة بن العبد: الديوان، ص 31-32.

⁴ - الأعشى: الديوان، ص 133.

7.1 أيام العرب:

تعد أيام العرب شاهدةً على الانتصارات في المعارك التي خاضتها القبائل العربية في ذلك العصر، وهي الأيام التي تغنى بها الشعراء جميعاً، وكانت محط فخر وإعجاب، ودالة على قوة تلك القبائل وشجاعتها، وقد وردت بعض النماذج في المعلقات لمثل هذه الأيام، ومن هذه الأيام يوم حزار الذي خاضت فيه قبيلتا بكر وتغلب حرباً على الأحباش في شبه الجزيرة العربية، بعد أن وجدت فيهم الأحباش خطراً يهدد كيانهما وكيان العرب الذين ينتسبون إليهم¹، وقد صور ذلك عمرو بن كلثوم حيث قال:²

وَنَحْنُ غَدَاةٌ أَوْقَدَ فِي خَزَاوِي	رَفَدْنَا فَوْقَ رِفْدِ الرَّافِدِيْنَا
وَنَحْنُ الْحَابِسُونَ بِذِي أُرَاطَى	تَسْفُ الْجَلَّةُ الْخُورُ الدَّرِيْنَا
وَكُنَّا الْأَيْمَنِينَ إِذَا التَّقِيْنَا	وَكَانَ الْأَيْسَرِينَ بَنُو أَبِيْنَا
فَصَالُوا صَوْلَةً فِيمَنْ يَلِيْهِمْ	وَصُلْنَا صَوْلَةً فِيمَنْ يَلِيْنَا
فَأَبَوْا بِالنَّهَابِ وَبِالسَّبَايَا	وَأَبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِيْنَا

وقد استوفى الشاعر في معلقته أحداث هذا اليوم الذي يعد من أهم أيام العرب، وهو يعبر عن الشخصية القبلية بأجلى مظاهرها، ومميزة للهاجس القومي في مجراها التعبير إيماناً بوحدة الدم والتي استشعر بها³، وكان العرب في أيامهم يحرصون على أسر كبار القوم لما في ذلك من هزيمة معنوية لخصومهم وفخر لهم، ولما في ذلك من كسب مادي يحققونه بالفدية التي يفتخر شعراؤهم بذلك، كما كان يثير حماسهم أسر الملوك وأبنائهم، وهذا قمة النصر عندهم⁴.

ومن أيام العرب التي ورد ذكرها في المعلقات (يوم نطاع)، وهو اليوم الذي أغار فيه بنو تميم على بني رزاح من بني تغلب وغنمت أموالهم⁵، وقد تغنى الحارث بن حلزة حيث قال⁶:

¹ - النعيمي، القبيلة في الشعر الجاهلي، ص 354-355.

² - عمرو بن كلثوم، الديوان، ص 82-83.

³ - النعيمي، القبيلة في الشعر الجاهلي، ص 385.

⁴ - عبدالرحمن، الشعر وأيام العرب، ص 25.

⁵ - عبدالرحمن، الشعر وأيام العرب، ص 133.

⁶ - الحارث بن حلزة: الديوان ص 39.

لَمْ يُحِلُّوا بَنِي رِزَاحٍ بِبِرْقَا
ثُمَّ فَأَوُّوا مِنْهُمْ بِقَاصِمَةِ الظَّهْرِ
ءِ نَطَاعٍ لَهُمْ عَلَيْهِمْ دُعَاءُ
رٍ وَلَا يَبْرُدُ الْغَلِيلَ الْمَاءُ

وقد تغنى الأعشى بأيام قبيلته (كيوم الحنو)، حيث كان قومه عزلاً من

السلاح ولا مكشوفين للأعداء وهم الفوارس راكبين وراجلين، ويبدو ذلك في قوله:¹

لَنْ قَتَلْتُمْ عَمِيداً لَمْ يَكُنْ صَدِّدَا
لَنْ مُنِيتَ بِنَا عَنْ غِبِّ مَعْرَكَةٍ
لَنْ قَتَلْنَا مِثْلَهُ مِنْكُمْ فَمَتَّ ثُلُ
لَمْ تُلْفَنَا مِنْ دِمَاءِ الْقَوْمِ نَنْتَقِلُ
كَالطَّعْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَّيْتُ وَالْفَتْلُ
جَنْبِي (فُطَيْمَةَ) لَا مِيلٌ وَلَا عَزْلُ
نحن الفوارس يوم الحنو ضاحية

8.1 الديانة:

العرب في العصر الجاهلي كغيرهم من الأمم لهم عاداتهم وأعرافهم، وكذلك عقائدهم ودياناتهم، وقد ورد في القرآن الكريم إشارات واضحة إلى ممارسات أهل الجاهلية الدينية، وكذلك طبيعة العقائد والديانات التي إعتقوها، وبخاصة الوثنية وعبادة الأصنام، والشعر الجاهلي أيضاً لم يغفل هذا الجانب لأهميته بالنسبة لهم، ومن هذا الشعر المعلقات التي ورد فيها بعض مظاهر الحياة الدينية آنذاك وكذلك ماورد في قول النابغة الذبياني الذي يشير فيه إلى الوثنية وعبادة الأصنام والشرك بها:²

فَلَا لَعَمْرُ الَّذِي مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ وَمَا
وَالْمُؤْمِنِ الْعَائِدَاتِ الطَّيْرِ، تَمَسَّحُهَا
هُرَيْقٌ، عَلَى الْأَنْصَابِ، مِنْ جَسَدِ
رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الْغَيْلِ وَالسَّعَدِ

ومن مظاهر الديانة إشارة امرئ القيس لمصاييح الراهب وتشبيهه محبوبته بها

تحدث عن ليلة ماطرة مظلمة حيث يقول:

تُضِيءُ الظَّلَامَ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهَا
مَنَارَةٌ مُمَسَّى رَاهِبٍ مُتَبَتِّلٍ³

¹ - الأعشى: الديوان، 135.

² - النابغة الذبياني، زياد بن معاوية الذبياني، (ت604) الديوان، محمد الطاهر، الشركة التونسية للنشر والشركة الوطنية الجزائرية، 1976، ص .

³ - امرؤ القيس الديوان، ص 17.

يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ أَمَالَ السَّلَيطَ بِالذُّبَالِ الْمُفْتَلِّ¹
والراهب ومنارته تشير إلى الديانة المسيحية، والراهب يضيء المنارة ليهدي
السائر في الظلام إلى مكانه.

ويشير زهير بن أبي سلمى إلى الطواف حول الكعبة، وهذا طقس من الطقوس
الجاهلية في الوثنية، يقول: ²

فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ رَجَالُ بَنُوهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجَرُّهُمْ
وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى التي يعبدونها بمكة والبيت العتيق المكرم

9.1 أحداث تاريخية:

تمر كل قبيلة من القبائل العربية ببعض الأحداث التاريخية التي تتباهى بها أمام
القبائل كالانتصارات بالحروب، أو السلب، أو تذكرها من باب الهجاء أو تذكر بعض
الأحداث المؤلمة.

فالحارث بن حلزة يذكر إغارة بكر على أحياء العرب من البحرين إلى
الحساء، ثم على تميم، وباهى بمن أسر قومه وسبوا، وبين أن غزوهم الشامل لم
يسلم منه قوي ولا ضعيف، ولم يسلم من بطشهم ما شيد من حصون ³ حيث يقول: ⁴

هَلْ عَلَّمَتْ أَيَّامَ يَنْتَهَبُ النَّاسُ غَوَاراً لِكُلِّ حَيٍّ عُوَاءُ
إِذْ رَكَبْنَا الْجِمَالَ مِنْ سَعَفِ الْبَحْرِ بَيْنَ سَيْرٍ حَتَّى نَهَاها الْحِسَاءُ
ثُمَّ مَلْنَا عَلَى تَمِيمٍ فَأَحْرَمْنَا، وَفِينَا بَنَاتُ قَوْمٍ إِمَاءُ
لَا يَقِيمُ الْعَزِيرُ بِالْبَلَدِ السَّهْلِ وَلَا يَنْفَعُ الدَّلِيلُ النَّجَاءُ

وهنا ذكر لبعض القصص التاريخية المشهورة مثل قصة زرقاء اليمامة التي
عرفت بحدة بصرها فأخبرت قومها بقدم الغزو فلم يصدقوها حتى حصل لهم ما
حصل، ويشير إلى تلك القصة النابغة الذبياني بقوله:

¹ - امرؤ القيس: الديوان، ص 24.

² - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص 105.

³ - طليمات، والأشقر، الأدب الجاهلي، 2001.

⁴ - الحارث بن حلزة، الديوان، ص 27-28.

أَحْكُمُ كَحُكْمِ فَتَاةِ الْحَيِّ، إِذْ نَظَرَتْ إِلَى حَمَامٍ سِرَاعٍ، وَارِدِ النَّمْدِ¹
ويغير الحارث بن حلزة بني تغلب بأنهم انهزموا أمام مجموعة من القبائل في
معارك وغارات، وهي كندة وحنيفة وبنو عتيق والعباد وقضاعة وإياد وتميم
وغيرهم، وقد استطاع أن ينفي صحة اتهامات التغلبيين لقومه من جهة، وغيرهم
بإذلال هذه القبائل لهم من جهة أخرى، وهو إذلال شنيع تمثله هذه القائمة الطويلة
من أسماء القبائل² يقول:³

أَعْلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةَ أَنْ يَغْ	نَمَ غَازِيَهُمْ وَمِنَّا الْجَزَاءُ
أَمْ عَلَيْنَا جَرَى إِيَادٍ كَمَا	كَاقِيلٍ يَطَسُّمٍ أَخُوكُمْ الْإِبَاءُ
لَيْسَ مِنَّا الْمُضَرَّبُونَ وَلَا قَيْ	سٌ وَلَا جَنْدَلٌ وَلَا الْحَدَّاءُ
أَمْ جَنَائِبِنِي عَتِيقٍ فَإِنَّا	مِنْكُمْ إِنْ غَدَرْتُمْ بُرَاءُ
أَمْ عَلَيْنَا جَرَى الْعِبَادِ كَمَا نِيْط	بَجُورِ الْمُحْمَلِ الْأَعْبَاءُ
وَتَمَانُونَ مِنْ تَمِيمٍ بِأَيْدِي	هِمْ رِمَاحٌ صُدُورُهُنَّ الْقَضَاءُ

وتعد معلقنا الحارث بن حلزة وعمر بن كلثوم من أبرز المعلقات التي عبرت
عن واقع القبيلة وأحداثها.

10.1 التنقل والترحال:

تقوم الحياة الجاهلية على التنقل من مكان إلى آخر بحثاً عن الكلاً والماء، فتحل
قبيلة وترحل الأخرى وتتعاقب القبائل في سكناها، وقد جرت العادة عند شعراء
الجاهلية عامة وشعراء المعلقات خاصة بذكر الديار والرحيل عنها وما يحل بها،
فهو بذلك يرسم صورة لطبيعة القبيلة، وحياتهم القائمة على التنقل والترحال.
وحياة الظعن والترحال، كانت تمثل حياة الغالبية العظمى من بدو الصحراء،
الذين كانوا في سفر دائم، متتبعين مساقط الغيث والماء ومنابعه ومواطن الرعي.⁴

¹ - النابغة، الديوان ص 37

² - العتوم، المعلقات العشر، ص 280.

³ - الحارث بن حلزة، الديوان، ص 37-38.

⁴ - طبائنه، معلقات العرب، ص 192.

وقد بدأ زهير بن أبي سلمى معلقته على عادة الشعراء الجاهليين بذكر الأطلال وصورة رحيل المحبوبة، وهما صورتان قبليتان تبيينان طبيعة الحياة البدوية، وقد أوضح كيفية الرحيل من ركوب الهودج والحل والمرتحل ووصف رحلته في الصحراء وما واجهه من عناء ومشقة، يقول: ¹

أَمَّنْ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ	بَحَوْمَانَةَ الدُّرَّاجِ فَالْمُتَتَّلِمِ
وَدَارُ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا	مَرَاجِيعُ وَشَمٍ فِي نَوَاشِرِ مَعْصَمِ
بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِينَ خَلْفَةً	وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْتَمِ
وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عَشْرِينَ حِجَّةً	فَلَأْيَا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمِ
أَثَافِي سَفْعًا فِي مُعَرَّسِ مَرَجَلِ	وَنُؤْيَا كَجِذَمِ الْحَوْضِ لَمْ يَتَتَلَّمِ
فَلَمَّا وَرَدَنَ الْمَاءَ زُرْقًا جِمَامُهُ	وَضَعْنَ عَصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيَّمِ

لقد أعطى زهير صورة واضحة لطبيعة الحياة والترحل في مقدمته الطليية، وهذه صورة تبين جانباً قبلياً في العصر الجاهلي.

وترحل القبائل وتعاقب في السكنى، فترحل قبيلة من موضع وتحل مكانها قبيلة أخرى، وقد عبر عن هذا المظهر عبيد بن الأبرص في مقدمته الطليية الذي بين فيها الأماكن التي أصبحت خالية من أهلها حيث يقول: ²

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ	فَالْقُطَيْبَاتِ فَالذَّنُّوبُ
فَرَكَسُ فَنُعَيْلَاتُ	فَذَاتَ فَرَقَيْنِ فَالْقَلِيبُ
فَعَرْدَةُ ، فَقَقَا حَبْرُ	لَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ عَرِيبُ
وَبُدِّلَتْ مِنْ أَهْلِهَا وَحُوشَا	وَغَيَّرَتْ حَالَهَا الْخُطُوبُ
أَرْضُ تَوَارِثَهَا الْجُدُوبُ	فَكُلُّ مَنْ حَلَّهَا مَحْرُوبُ

وهذه كلها أسماء أماكن تسكنها القبائل وترحل منها، ومن صور الترحل مشهد الطعائن، بهودج تظن كل هودج منها كناس طي وفي الهودج طعينة مظاللة بكاللة رقيقة تقيها الغبار والحر. ³ ويقول بذلك لبيد: ⁴

¹ - زهير: الديوان، ص 102-103.

² - عبيد بن الأبرص: الديوان، حسين نصار، دار المعارف، مصر 1957. ص 25.

³ - طليمات، والاشقر، الأدب الجاهلي، ص 476.

⁴ - لبيد: الديوان ص 300.

شَاقَتْكَ ظُغْنُ الْحَيِّ حِينَ تَحْمَلُوا فَتَكَنَسُوا قُطْنًا تَصِرُ خِيَامَهَا
مِنْ كُلِّ مَحْقُوفٍ يُظِلُّ عَصِيَّةً زَوْجٌ عَلَيْهِ كِلَّةٌ وَقِرَامُهَا

11.1 الناقة والفرس:

لقد تغنى عدد من الشعراء بالفرس والناقة وحرصوا على ذكرهما في الشعر، فوصفوا كل جزء من أجزاء الناقة وشبهوها أحياناً بالمحوبة، فالقبلي اهتم بالناقة التي تنقله من مكان لآخر عبر هذه الصحراء، وعليها يحمل متاعه، ومن أبرز من وصف الناقة في الشعر الجاهلي وبين أنها وسيلة الانتقال والارتحال للقبائل العربية وفيها ينتقل بحثاً عن الماء والكأ طرفه بن العبد حيث يقول: ¹

وَإِنِّي لَأَمْضِي الهمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بَعَوْجَاءَ مِرْقَالٍ تَلُوحُ وَتَغْتَدِي
أُمُونٍ كَأَلْوَاكِ الْإِرَانِ نَصَاتُهَا عَلَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجِدٍ
تَرَبَّعْتُ الْفَقِينِ فِي الشَّوْلِ تَرْتَعِي حَدَائِقَ مَوْلَى الْأَسِرَةِ أُغْيَدِ
تَرِيحُ إِلَى صَوْتِ الْمُهِيبِ وَتَتَّقِي بِذِي خُصَلٍ رَوَعَاتٍ أَكْلَفَ مُلْبِدِ

وقد وصف ناقته سائرة متحركة ولم يصفها جامدة ثابتة، ويعلق على ذلك الدكتور شوقي ضيف حيث يقول "وما من شك أن هذه الحركة مشتقة من حياتهم التي لم تكن تعرف الثبات والاستقرار فهم دائماً راحلون وراء الغيث ومساقط الكأ" ².

وفي حديث الشاعر عن الناقة تصوير لجانب من الحياة القبلية، فالناقة ذات أهمية للإنسان القبلي وأعتز بها وفاخر أمام قبيلته، وفي الحديث عنها ذكر لبعض الحيوانات التي تعيش في الصحراء وكلها تصور مظاهر الحياة القبلية يقول ليبيد: ³

بَطْلِيحٍ أَسْفَارٍ تَرَكْنَ بَقِيَّةً مِنْهَا فَأَحْنَقَ صُلْبُهَا وَسَنَامُهَا
فَإِذَا تَعَالَى لَحْمُهَا وَتَحَسَّرَتْ وَتَقَطَّعَتْ بَعْدَ الْكَلَالِ خِدَامُهَا

¹ - طرفه: الديوان، ص 27-32.

² - ضيف، العصر الجاهلي، ص 223.

³ - ليبيد الديوان، ص 303-304.

افتخر الشاعر أيضاً بفرسه وحصانه الذي يشاركه حياة الحرب والمعارك ومن ذلك حديث عنتره عن حصانه الذي يواجه به أعداءه: ¹

يَدْعُونَ عَنترَ والرَّماحُ كأنَّها أَشْطانُ بُرٍّ في لَبانِ الأَدْهَمِ
إِذْ لا أزالُ على رِحالَةٍ سابِحٍ نَهْدٍ تعاوَرُهُ الكُماةُ مُكَلَّمِ
ويتكرر هذا المشهد عند امرئ القيس الذي يثى على حصانه السريع المقدام، حيث يقول: ²

مَكَرٌ مَفَرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعاً كَجُلْمُودٍ صَخَرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عِلِ
كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالٍ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّقَوَاءُ بِالْمُتَنَزِّلِ
مَسَحَ إِذَا ما السَّابِحَاتُ عَلَى الوَنَى أَثَرْنَ غُبَاراً بِالكَدِيدِ المُرْكَلِ

12.1 الصيد:

يعد الصيد مظهراً من مظاهر حياة العرب في العصر الجاهلي، ومسلكاً من مسالك اللهو والتسلية، فكانوا يخرجون له للترفيه عن أنفسهم، ويصور فيه الشعراء رحلتهم في طلب الصيد وتحملهم المصاعب في ذلك، وفي أثناء حديثهم يذكرون بعض الحيوانات الصحراوية.

ومن صور الصيد التي ظهرت عند النابغة الذبياني صورة فزع الثور الوحشي حينما يسمع صوت الصياد والذي تصحبه كلابه المدربه، وانطلاق هذه الكلاب إلى الثور، فعدا أمامها بقوائم صلبة ليس في مفاصلهن ترهل ولا استرخاء³، يقول الشاعر: ⁴

فارتاعَ مِنْ صَوْتِ كَلابٍ، فَبَاتَ لَهُ طَوَعَ الشَّوَامَتِ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ صَرَدِ
فَبَثَّهَنَّ عَلَيْهِ، واستَمَرَ بــــه صُمِعَ الكُغُوبِ بَرِياتٍ مِنَ الحَرَدِ
وكانَ ضُمُرانُ مِنْهُ حَيْثُ يُوزَعُهُ طَعَنَ المُعارِكِ عِنْدَ المُحَجَّرِ النَّجْدِ

¹ - عنتره، عنتره بن شداد العبسي، (ت516م)، الديوان، تحقيق محمد سعيد مولي، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، 1983، ص24.

² - امرؤ القيس، الديوان، ص 25.

³ - طلبيمات، والاشقر، الادب الجاهلي، ص 347-348.

⁴ - النابغة: الديوان، ص 33-34.

لقد بين النابغة محاولة الصياد في صيد الثور من خلال كلابه لكنها لم تستطع وهزمها الثور الذي طعنها بقرنه فارتاعت منه.

ومن مشاهد الصيد ما ورد في معلقة عبيد بن الأبرص الذي جعل خاتمة معلقته تتضمن مشهداً حياً من مشاهد الصيد، صور فيه كيف تقنص العقاب الثعلب حيث يقول:¹

وَدُونَهُ سَبَّابٌ جَدِيبٌ	فَأَبْصَرْتُ ثَعْلَبًا سَرِيعًا
وَهِيَ مِنْ نَهْضَةٍ قَرِيبٌ	فَنَفَضَتْ رِيشَهَا وَوَلَّتْ
وَفَعَلَهُ يَفْعَلُ الْمَذْؤُوبُ	فَاشْتَالَ وَارْتَاعَ مِنْ حَسِيسٍ
فَكَدَحَتْ وَجْهَهُ الْجَبُوبُ	فَجَدَّلَتْهُ فَطَرَحَتْهُ

فرض هذا النوع من التسلية المتمثلة في صيد الحيوانات البيئة الصحراوية فضلاً على أن الصيد أيضاً كان وسيلة من وسائل للحصول على الطعام في حال السفر والتنقل وفي حال الإقامة، وفيه كذلك نوع من الرفاهية والمغامرة يقبل عليها المحترف.

13.1 الماء والسيل والمطر:

كانت القبائل العربية في ترحال دائم للبحث عن الكأ والماء، وكانت هذه القبائل عندما تجد الماء تحميه وتحمي مواقع السحاب، فلا تُرعى حماها ولا يُورد مأوها إلا إذا استولي عليه عنوة وقسراً، ولطالما نشبت الحروب بين القبائل من أجل بئر ماء وغدير معشوشب، وقد عبر امرؤ القيس عن تناحر بين قبيلتين بسبب ورود الماء حاولت إحداها منع الأخرى من الاقتراب²، يبدو هذا المشهد في قوله:

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا	بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلٍ ³
كَبْكُرِ الْمُقَانَاةِ الْبَيَاضِ بِصُفْرَةٍ	غَذَاهَا نَمِيرُ الْمَاءِ غَيْرُ الْمُحَلَّلِ ⁴

¹ - عبيد بن الأبرص: الديوان، 27.

² - البستاني، الشعر الجاهلي، ص 25.

³ - امرؤ القيس: الديوان ص 19.

⁴ - المصدر نفسه، ص 16.

لقد بين امرؤ القيس حماية العرب للماء فإذا حمت قبيلة بئراً أو غديراً فلا تقترب منه قبيلة أخرى، وهذا ما يقصد بقوله غير المحلل، أي الذي لم يكن حلالاً لكل الناس بل لأناس معينين.

ومن العادات القبلية في الورود على الماء أن يرد عليه القوم الماء أولاً ليشر به صافياً، ثم يرده رعا ع القوم فيشربون الماء الكدر، لأنهم يأتون في مؤخرة الواردين¹، حيث يقول في ذلك عمرو بن كلثوم:²

وَتَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا الْمَاءَ صَفْوَاً وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدِراً وَطِيناً

فالقوم مقسمون طبقات وفق منزلتهم في القبيلة وعليها يكون الورود للماء.

والإنسان الجاهلي في هذه الصحراء الموحلة القاحلة بحاجة ماسة للماء، فهو مصدر حياته يشرب منه، ومصدر رزقه لحيوانه ونباته، ولذلك كانت فرحة الجاهلي عارمة عندما يسقط الغيث، فحاجة البادية إلى الماء جعلت لفصل الأمطار شأناً عظيماً لأن البدوي³ يشعر بالجوع في أواخر الصيف، ويحزنه أن يرى العشب يابساً والغدران والأبار جافة، وتمله الطبيعة بصحوها المستمر وحرها الخانق، فأخذه الكآبة خوفاً من الجذب إذا احتبس المطر، وضجراً من حياة متشابهة، ويظل على هذه الحال مرحباً بتدل وجه السماء لتأتيه بالغيث والفرج، حتى إذا أغبر الأفق وسطع البرق، ابتهج ومضى يتأمل هذه الظواهر الجديدة في الطبيعة مترقباً نزول المطر، وقد عبر عن هذه الصورة امرؤ القيس حينما نظر فرحاً إلى البرق والسيل الجارف يسحو الجبال ويفترس الصحراء، فتتلع الأشجار وتتهدم الآطام، يقول:⁴

أَحَارِ تَرَى بَرَقاً كَأَنَّ مِيْضَهُ كَلَمَعَ الْيَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلِ
فَعَدْتُ لَهُ وَصُحْبَتِي بَيْنَ حَامِدِ وَبَيْنَ إِكَامِ بُعْدَمَا مُتَأَمَّلِ
فَأَضْحَى يَسُحُّ الْمَاءَ حَوْلَ كُتَيْقَةٍ يَكْبُ عَلَى الْأَذْقَانِ دَوْحَ الْكَنْهَبِلِ

¹ - البستاني، الشعر الجاهلي، ص 26.

² - عمرو بن كلثوم: الديوان ص 90.

³ - البستاني، الشعر الجاهلي، ص 25-27.

⁴ - امرؤ القيس: الديوان ص 24.

14.1 الألعاب القبلية:

وقد انتشر في القبائل العربية عدد من الألعاب التي كانوا يلعبون بها من باب التسلية، وقد ذكر بعض الشعراء هذه الألعاب من باب التشبه بها.

وفي حديث طرفة عن الأطلال يذكر لعبة المفائل حيث يقول:¹
يَشُقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْزُومُهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمُفَائِلَ بِالْيَدِ
والمفائل أو الفيال أو المفائلة، هي لعبة الصبيان حيث يقومون بتكوين التراب أو الرمل، ثم يخبئون فيه خبيئاً، ثم يشق المفائل تلك الكومة بيده، فيقسمها قسمين، ثلث منها مخبأ في أي جانب؟ فإذا أصاب ظفر وإن أخطأ قمر.²

ومن الألعاب كذلك لعبة المخاريق وهي من علامات الخفة والحقق بالضرب بالسيوف³ فقد أشار إليها عمرو بن كلثوم في قوله:⁴

كَأَنَّ سَيُوفَنَا مَنَا وَمِنْهُمْ مَخَارِيقُ بَأْيَدِي لَاعِبِينََا

والمخاريق لعبة بيد الصبيان وهو المنديل الذي يلف ليغري به.⁵
وذكر عمرو بن كلثوم كذلك لعبة القلينا، وهي خشبة يلعب بها الصبيان ويديرونها ثم يضربون بها، يقول:⁶

وَمَا مَنَعَ الظَّعَّائِنَ مِثْلُ ضَرْبٍ تَرَى مِنْهُ السَّوَاعِدَ كَالْقَلِينَا

ومن لعب الصبيان كذلك الخذروف، حيث شبه امرؤ القيس سرعة جواده بالخذروف، وهي شيء يدور به الصبي في يده فيسمع له دويّاً، يقول:⁷

دَرِيرٍ كَخُذْرُوفِ الْوَلِيدِ أَمْرَهُ تَقْلَبُ كَفَّيْهِ بِخَيْطٍ مُوَصَّلِ

هذه بعض الصور من الحياة القبلية التي صورها الشعر الجاهلي عامة والمعلقات خاصة، فصور جوانب متعددة من حياة القبائل من فخرها وطبيعة حياتها وحلّها وترحلها، وعاداتها وتقاليدها، فبعض المعلقة نقلت صورة أحداث قبلية كاملة

¹ - طرفة بن العبد: الديوان ص 26.

² - الشيباني، أبي زكريا الأصفهاني، المعلقة العشر، الخطيب التبريزي، دار الارقم، بيروت، ص 85.

³ - طبانه، معلقة العرب، ص 239.

⁴ - عمرو بن كلثوم: الديوان، ص 76.

⁵ - ابن منظور، لسان العرب مادة خرق، دار صادر بيروت، ط3، 1994.

⁶ - عمرو بن كلثوم: الديوان ص 88.

⁷ - امرؤ القيس: الديوان ص 21.

كمعلقتي عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة التي صورت قبيلتي بكر وتغلب من خلال حرب البسوس، وما تم من صلح وفخر بالمناقب وغيرها، ويبين طرفة بن العبد في معلقته مصير من يخرج عن أعراف القبيلة، وعبر عنتره عما عاناه لأنه ابن أمة، فالتقاليد الجاهلية لا تعترف بأبناء الإماء، وكذلك صورة معلقة لبيد فخراً قبلياً خالصاً تجاه سيد القبيلة وما يتمتع به من خصال، بمعنى أن المعلقات على وجه الخصوص كشفت عن حياة القبائل العربية بكل ما فيها، وبأدق تفاصيلها.

الفصل الثاني

مظاهر الحضارة في شعر المعلقات

الحضارة لغة: الحضر، الحضرة والحاضره: خلاف البادية، وفي المدن والقرى والريف سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم قرار.¹

ومظاهر الحضارة في العصر الجاهلي كأى مظهر آخر لم يغفله الشاعر الجاهلي وشعر المعلقات على وجه الخصوص، فإذا أخذ بعين الاعتبار أن الشاعر ابن بيئته يتأثر بكل ما يحيط به، والحضارة من المعالم اللافتة التي اعتنى بذكرها الشعراء، لأنها تمثل صورته مشرقة من حياة العرب في ذلك العصر.

وقد عرف ابن خلدون الحضارة في مقدمته واهتم بها ووقف عندها وقفة متأنية، حيث أشار إلى مفهومها بقوله: "والحضارة كما علمت هي التفتن في الترف، واستجادة أمواله، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابع، أو الملابس، أو المباني، أو الفرش، أو الأبنية ولسائر أحوال المنزل".²

ومن هنا يمكن القول إن الحضارة تتمثل في الاستقرار والبناء وال عمران والتفتن بذلك.

والجزيرة العربية تعم بالقبائل البدوية التي تأثرت بالحضارات من حولها من منازرة وغساسنة واليمن وغيرها، ويبدو أن سبب ذلك بسبب موقع الجزيرة العربية المتوسط بين هذه المواقع، ما يؤدي أن تكون طريقاً للتجارة والتنقل، وكذلك حركة أبناء القبائل وترحالهم، فأثر ذلك في حياة العرب ثم أخذ الشاعر يصف مظاهر البيئة من حوله، ويمكن أن يدرس هذا الجانب وفق العناوين الآتية:

¹ - ابن منظور، لسان العرب مادة الحضر.

² - ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون، موسوعة العلامة ابن خلدون، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1999، ص 465.

1.2 الأطلال

لقد أبرز الشعراء من خلال مشهد الطلل في المعلقة صورة حضارية في ذلك العصر، تتمثل في الإشارة إلى أسماء المواقع والمدن والأماكن التي شهدت حركة بناء وعماره، وكذلك ورد فيها ما يوضح طريقة البناء وأدواته، وهو ما جعل الباحثة تفرد للأطلال عنواناً تحت باب الحضارة.

ففي مقدمة امرئ القيس الطللية صورة عن بيئة الشاعر الذي لم يكن بدوياً بما تدل عليه الكلمة مثل أولئك الشعراء، الذين اهتموا بالقبيلة والحروب وغيرها، بل كان يهتم باللهو والغناء والمرح، كل هذا بسبب البيئة البدوية المتحضرة، فأصل الحضارة البداوة وكان لاتصال كندة بالممالك الأخرى أثر كبير في هذه الحضارة.

وقد كان امرؤ القيس نجدياً يمينياً حضرياً وبدوياً، وهو أول شاعر جاهلي ظهر أثر الحضارة في أسلوبه من ناحية اختيار اللفظ وجمال التعبير¹، والمادة التي يصوغ منها صورته تتصل بالبادية اتصالاً وثيقاً، كأسماء الأمكنة، وبعر الآرام، والنخلة والرئم والاساريح والذئاب والثعالب والحنظل وأوتار الحناء والناقة وأشياء أخرى كثيرة، لكنه لم يكن بدوياً مفرطاً في البداوة وإنما نصف حضري، أو متحضراً في البادية، ومن هنا نجد بين مادته الأدبية ما ينم عن رقي وترف وثراء، فلم يكن المسك والفلل، وكلاهما بعض مادته، مما يختاره الفقراء من الناس²، حيث قال في وصف الأطلال:³

قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ	بِسِقْطِ اللّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْملِ
فَتَوْضِحَ فَالْمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا	لَمَّا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالِ
تَرَى بَعَرَ الْأَرَامِ فِي عَرَصَاتِهَا	وَقِيَعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبٌّ فَلْفُلِ
كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا	لَدَى سَمَرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ

رسم امرؤ القيس خريطة جميلة لمكان سكن محبوبته في وقوفه على الأطلال، ورأى أن هذه الأطلال ما زال لها أثر رغم ما نسجته عليها ريح الجنوب والشمال،

¹ - الحاوي، سعد، الصورة الفنية في شعر امرئ القيس، العلوم، المملكة العربية السعودية، ط1، 1983، ص 257.

² - مكي، الطاهر، امرؤ القيس حياته وشعره، دار المعارف، مصر، 1970، ص 270.

³ - امرؤ القيس: الديوان ص 8-9.

وهذه صورة توحى بطبيعة الحضارة في زمن امرئ القيس، ولعل لفظ النسيج الوارد في الأبيات السابقة يدل على معرفة العرب له. وفي حديثه عن بعر الارام وتشبيهها بحب الفلفل تبين أثر الحضارة والثراء.

ويكشف الشاعر عنتر بن شداد في معلقته عن حضارة مترفة راقية تعيش فيها محبوبته عبلة، والدارس لهذه المعلقة يستطلع صورة ذلك الصراع الطبقي بين الفقراء والأغنياء، وما دام الشاعر يتحدث عن صورة امرأة غنية ثرية لا بد أن قومها أناس يعيشون في مناطق حضرية نالت حظاً من الرقي الحضاري، حتى الرفاه الذي تتصف به أرض عبلة فهي من علامات الحضارة، ثم أشار الشاعر إلى عدد من المواقع والآثار التي تم بناؤها حيث يقول:¹

وَتَحُلُّ عِبْلَةً بِالْجَوَاءِ وَأَهْلُنَا	بِالْحَزَنِ فَالصَّمَانِ فَالْمُتَنَلِّمِ
حُبَيْبَتٍ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَنْهُدُهُ	أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثِمِ
حَلَّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فَأَصْبَحَتْ	عَسْرًا عَلَيَّ طِلَابُكَ ابْنَةَ مَخْزَمِ
عُلِقَتْهَا عَرْضًا وَأَقْتُلُ قَوْمَهَا	زَعْمًا لَعَمْرُ أَبِيكَ لَيْسَ بِمَزْعَمِ
وَلَقَدْ نَزَلْتُ فَلَا تَظُنِّي غَيْرُهُ	مَنْيَ بِمَنْزِلَةِ الْمُحِبِّ الْمُكْرَمِ
كَيْفَ الْمَزَارُ وَقَدْ تَرَبَّعَ أَهْلُهَا	بِعُنْيَتَيْنِ وَأَهْلُنَا بِالْغَيْلِمِ
إِنْ كُنْتَ أَزْمَعْتَ الْفِرَاقَ فَإِنَّمَا	زَمَمْتُ رِكَائِبُكُمْ بَلِيلَ مُظْلِمِ
مَا رَاعَنِي إِلَّا حَمُولَةُ أَهْلِهَا	وَسَطَ الدِّيَارِ تَسْفُ حَبَّ الْخِمْمِ

لقد صور عنتر موقف الرحيل وذكر المواقع التي تقيم بها عبلة وهي صورة تعكس جانب الحضارة، وذكر حب الخمخ وهو (بقلة لها حب أسود إذا أكلته الغنم قلت لباتها وتغيرت)² فقد ذكر بعض ماتأكله الحيوانات وما يمكن أن يؤثر بها وعلى حليبيها، وذكره لحب الخمخ وارتياحه إلفها لحب الخمخ صورة حضارية تعكس ما قد يؤثر بالحيوان من النبات، وذكره لحب الخمخ يعني كذلك رحيلها بعد الربيع. وصورة الأطلال تعكس صورة حضارية عن كيفية وطبيعة هذا الرحيل من تحمل ونقل وما يترك من آثار.

¹ - عنتره: الديوان، 14-15.

² - الشيباني، شرح المعلقات، ص 203.

2.2 الخمر:

ومجالس الخمر من أبرز الصور الحضارية في الشعر الجاهلي بما فيها من لهو مجون وأدوات ومرافق، وقد برز تصوير هذه المجالس عند عدد كبير من الشعراء.

وممن أبرز في شعره صورة مجالس الخمر بكل تفاصيلها الأعشى الذي أشار إلى بائع الخمر وساقياها الذي يعد من الشخصيات النمطية، فالساقى يشد فمه خرقة بيضاء ويحلي أذنيه اللؤلؤ كما يفعل ملوك الفرس وثيابه مرتفعة عن الأرض¹ (وهذه الصورة مما اكتسبه الشاعر من الحضارات الأخرى)².
يقول في ذلك:³

يسعى لها ذو زُجاجاتٍ له نطفٌ مقلص أسفل السربالِ مُعتمِلُ
فقد بين ما يشرب به الخمر وهو الزجاج وكذلك شكل من يقدمه.

ويبرز الشاعر صورة حضارية متكاملة لمجلس الخمر حيث يقول:⁴

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني	شاوٍ مثل شلؤل شلؤل شلؤل شلؤل
في فتية كسيوف الهند قد علموا	أن هنالك كل من يخفي وينتعل
نازعتهم قُضب الریحان مُتكنًا	وقهوة مُرّة راووقها خضل
لا يستقيقون منها وهي راهنة	الإبهات، وإن علوا، وإن نهلوا
ومستجيب تخال الصنّج يسمعه	إذا ترجّع فيه القينة الفضل
والساحبات ذبول الریط آونة	والرافلات على أعجازها العجل

هذه الأبيات تنقل لنا مشهداً متكاملًا للحضارة الفارسية المترفة في لهوها، والبيت الأول يشير إلى عبثية الموقف بمثل هذا التلاعب من الكلمات، ثم يتحدث الشاعر عن رفقاءه في مجلس الشراب ويشبههم بـسيوف الهند، وهذا التشبيه يدل على ذوق وقيم إنسان ذلك العصر، المتمثلة في الخمر والميسر، وهؤلاء الندمان من

¹ - عجلان، عباس، عناصر الابداع في شعر الأعشى، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1985، ص 72.

² - العمري، زينب، السمات الحضارية في شعر الأعشى، دار الملك عبدالعزيز، الرياض، 1983، ص 72.

³ - الأعشى: الديوان، ص 133.

⁴ - الأعشى: الديوان، ص 133.

الشباب الذين ينصرفون إلى المتعة، ولا يبالون بشيء آخر، ثم هذه الحركة الفاترة التي تبدو في الفعل (نازعتهم)، وهم على هذه الحالة من الانصراف إلى الخمر، ويبدو ذلك من لفظة متكئاً، وما يصاحب هذا الموقف من غناء وطرب ورياحين منثورة، ثم وصف القينة الفضل، وما تلبسه من الملابس الشفافة من الخز والتي تتم عن الترف، وهذا المشهد يعبر تماماً عن تأثر العرب في ذلك العصر بحضارات الأمم الأخرى، ثم إن ألفاظ الشاعر أكثر دقة ونعومة، وحركته فيها هذا اللين الذي يدل على تغير الذوق الحضاري عند الشاعر.¹

ولعل البيئة الحضارية التي نشأ فيها الأعشى كان لها أثر في ذلك أيضاً، فقد ولد الأعشى في منفوحة باليمامة، وذلك الإقليم يقع في أطراف هضبة نجد في الجنوب الشرقي، ويحوي واديين يمتدان من الاتجاه الشمالي إلى الجنوبي، إحداهما وادي قران والآخر وادي العرض، ولما وكان من الأودية الخصبة، فقد كثرت بها القرى، وقامت الزراعة، ولذا فالمياه وفيرة باليمامة والجدول الجارية مألوفة²، ولا يعني ذلك البيئة التي ولد فيها فحسب هي التي أثرت فيه، فقد كان الأعشى جوالاً يستوعب في كل رحلة المؤثرات البيئية الجديدة التي يعيشها ولو لفترة وجيزة، فقد وفد على ملوك نجران بني عبد المدان، وعلى الغساسنة بالشام وعلى اللخمين بالعراق.³

لقد كان لبيئة الأعشى الداخلية ولرحلاته الخارجية أثر في إظهار تلك الصور الحضارية المتنوعة في شعره. ويعلق عبد الملك مرتاض على بيت الأعشى الغريب وهو:⁴

وقد غَدوتُ إلى الحانوتِ يَتَبَعُنِي
شَاوٍ مِثْلُ شُلُولٍ شَلْشَلٍ شَوْلٍ

فيقول: "وقد كان الشراب يتم على صورتين: صورة الشارب المدمن الناشد للذة والمتلمس لسماع القيان والتمتع برقصهن، وكان ذلك يتم في حانات منصوبة تتاجر في الخمر والجواري، وربما كان الأعشى يُومئُ ببيته العجيب إلى هذا

¹ - العمري، السمات الحضارية في شعر الأعشى، ص 374.

² - عجلان، عناصر الابداع في شعر الأعشى، ص 16.

³ - العمري، السمات الحضارية في شعر الأعشى، ص 19.

⁴ - الأعشى: الديوان، ص 133.

الضرب من الحوانيت التي كانت منصوبة من الحواضر العربية هنا وهناك، والصورة الأخرى: إن الشارب ربما ابتاع زقاً من الخمر، ثم دعا أصدقاء له ليشاربوه في مناسبة من المناسبات، أو على وجه الإدمان، أو على وجه تبادل المجالس بين الصديق والإخوان".¹

ويشير طرفة بن العبد إلى أماكن شرب الخمر وبعض أدواتها الحضارية حيث يقول:²

فَإِنْ تَبَغْنِي فِي حَقَّةِ الْقَوْمِ تَلْقَنِي وَإِنْ تَلْتَمِسْنِي فِي الْحَوَانِيتِ تَصْطُدِ
مَتَى تَأْتِي أَصْبَحُكَ كَأْساً رَوِيَّةً وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْهَا غَائِباً فَاغْنِ وَازِدِدِ
وقد ذكر طرفة في حديثه عن ملذاته نوعاً من أنواع الخمر هو الكميت و(الكميت من الخمر التي تضرب إلى السواد).³
يقول:⁴

فَمِنْهُمْ سَبْقِي الْعَاذِلَاتِ بِشَرْبَةٍ كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعَلِّ بِالْمَاءِ تُزِيدِ
ومن أدوات الخمر كذلك الأزهر وهو⁵ (الإبريق من فضة أو رصاص) يكون بجانب الزجاجه المخططة، وقد أشار إليه عنتره في معلقته حيث قال:
بِزُجَاجَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أُسْرَةٍ قُرْنَتْ بِأَزْهَرٍ فِي الشَّمَالِ مُقَدَّمِ⁶
ويبين عمرو بن كلثوم مشهداً حضارياً لافتاً يتمثل فيه صورة الخمر وبعض أدواتها وحتى أماكن صناعتها، وكذلك الطريقة الحضارية المتبعة في صناعتها وطريقة خلطها بالماء، حيث يقول:⁷

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا
مُشْعَشَعَةً كَأَنَّ الْحُصَّ فِيهَا إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا
تَجُورُ بِذِي اللَّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِينَا

¹ - مرتاض، عبد الملك، السبع المعلقات، منشورات اتحاد الكتاب 1998، ص 324.

² - طرفة: الديوان ص 32.

³ - التبريزي، شرح المعلقات، ص 101.

⁴ - طرفة بن العبد: الديوان، ص 32.

⁵ - التبريزي، شرح المعلقات، ص 211.

⁶ - عنتره، الديوان، 19.

⁷ - عمرو بن كلثوم: الديوان، ص 65-66.

تَرَى اللَّحْزَ الشَّحِيحَ إِذَا أُمِرَتْ
وَكَأْسٍ قَدْ شَرِبْتُ بِبَعْلَبَكْ
عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهَيَّنَا
وَأُخْرَى فِي دِمَشْقَ وَقَاصِرِينَا

فقد ذكر الشاعر الصحن وهو القدر الواسع الضخم والكأس كما ذكر الشام وبعلبك وقاصرين، وهذه صورة حضارية.¹

ويبدو في ما مضى ما كانت عليه الحضارة العربية، في ذلك العصر، وما اكتسبته تلك الحضارة من حضارات الأمم السابقة، وكذلك أثر ألفاظ الحضارة في الشعر الجاهلي، كما بدا ذلك من النماذج الشعرية السابقة.

3.2 الأسلحة وأدوات القتال:

إن البيئة العربية التي نشأ فيها الجاهليون بما فيها من ظروف قاسية، وما شهدته القبائل العربية من صراعات ونزاعات تطلب وجود صناعة للأسلحة وآلات الحرب التي تشكل فيها جانباً حضارياً مادياً، فقد بلغت الأسلحة بشكل عام مكانة خاصة عند العرب الذين رأوا فيها هيبتهم ومكانتهم وقد أشار معظم شعراء المعلقات إلى أنواع الأسلحة ومن ذلك إشارة طرفة بن العبد إلى السيف المهند حيث قال:²

وظَلُمَ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً
عَلَى الْمَرْءِ مَنْ وَقَعَ الْحَسَامُ الْمُهَنْدُ

فقد ذكر السيف من باب تشبيهه ظلم ذوي القربى بوقع السيف، أي أنه شديد الألم، وطرفة شديد الفخر بسيفه البتار محكم الصنع، وفيه يقول:³

فَالَيْتُ لَا يَنْفَكُ كَشْحِي بِطَانَةٍ
لِعَضْبٍ رَقِيقٍ الشَّفَرَتَيْنِ مُهَنْدٍ
حُسَامٍ إِذَا مَا قُمْتُ مُنْتَصِراً بِهِ
كَفَى الْعَوْدَ مِنْهُ الْبَدْءُ لَيْسَ بِمِعْضَدٍ
أَخِي ثِقَةٍ لَا يَنْتَنِي عَنْ ضَرِيْبَةٍ
إِذَا قَبِلَ مَهْلًا قَالَ حَاجِزُهُ قَدِي

وتحدث شعراء المعلقات عن الرماح بأنواعها وأشادوا بطريقة صنعها، من ذلك قول عنتره يعلي من شأن رمحه وسيفه أيضاً:⁴

فَشَكَكْتُ بِالرُّمَحِ الْأَصَمِّ ثِيَابَهُ
لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمٍ

¹ - التريبيزي، شرح المعلقات، ص 237.

² - طرفة: الديوان ص 36.

³ - طرفة: الديوان ص 36-37.

⁴ - عنتره: الديوان ص 21، 22.

فَطَعْنَتْهُ بِالرُّمَحِ ثُمَّ عَلَوْتُهُ بِمُهَنْدٍ صَافِي الْحَدِيدَةِ مَجْدَمٍ

ومن أنواع الرماح السمهرية أشار إليها لبيد بقوله:

فَلَحِقَنَ وَاعْتَكَرَتْ لَهَا مَدْرِيَّةٌ كَالسَّمْهَرِيَّةِ حَدُّهَا وَتَمَامُهَا¹

وأشار النابغة إلى صانع السيف الذي يعرف بالصقيل، حيث قال:²

مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ، مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ طَاوِي الْمَصِيرِ، كَسِيفِ الصَّيْقِلِ الْفَرْدِ

وهذه من الصور البدوية في شعر النابغة، الذي عرف شعره بالتأرجح بين

البداءة والحضارة، إلا أنه يظل أقرب إلى البداءة فقصائده مشبعة بروح البداءة.³

ولعل هذا التأرجح سببه تعلق النابغة بقييلته، بسبب حرب داحس والغبراء،

وحماسته لها، وعلاقته بالحضارة مع الملوك وذهابه إلى بلاطهم وخصوصاً صحبتته

مع الملك النعمان بن الحارث، فتأثر بمؤثرات الحضارة هناك.

وأكثر زهير بن أبي سلمى من وصف الأسلحة وأدوات القتال في شعره وفي

المعلقة ذكر أكثر من أنواع الأسلحة، لأن زهيراً خاض طويلاً في موضوعات

الحرب والسلم، ومن ذلك قوله بالرمح:⁴

لَعَمْرُكَ مَا جَرَّتْ عَلَيْهِمْ رِمَاحُهُمْ دَمَ ابْنِ نَهْيِكَ أَوْ قَتِيلِ الْمُتَلَمِّ

وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الزُّجَاجِ فَإِنَّهُ يُطِيعُ الْعَوَالِي رُكْبَتُ كُلِّ لَهْزَمٍ

فقد فصل زهير الحديث عن الرمح، فالزجاج هو أسفل الرمح، والعوالي

أعلى الرمح، وأشار إلى الرمح الحاد بمعنى لهزم.⁵

ومن الصور التي تعكس حضارة العرب في الحرب غير الأدوات السابقة

الحديث عن راية الحرب قبل وبعد الحرب واستخدام الألوان، في ذلك يقول عمرو

ابن كلثوم:

بِأَنَا نُورِدُ الرِّايَاتِ بَيْضاً وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قَدْ رُوِينَا⁶

¹ - لبيد: الديوان ص 312.

² - النابغة، الديوان، ص 34.

³ - حاوي، إيليا، النابغة سياسته وفنه، بيروت، ط2، 1987، ص 216.

⁴ - زهير: الديوان ص 109.

⁵ - الشيباني، شرح المعلقات، ص 136-137.

⁶ - عمرو بن كلثوم: الديوان، ص 71.

هذا ذكر لبعض أنواع أدوات الحرب التي تدل على صورة حضارية في استعمالها، فقد صنعوها وعرفوا كيفية استخدامها، وفي ذلك كله ملمح حضاري شهدته الجزيرة العربية آنذاك.

4.2.2 العطور

اهتم العربي بالعطور منذ القدم رجالاً ونساءً، ولذلك تحدث الشاعر الجاهلي عن العطور والمواد التي تصنع منها وكذلك الأوعية التي تحفظ بها، وهذه صورة حضارية.

ومن ذلك ذكر المسك وهو من العطور وله رائحة زكية قوية، يصنع بطريقة حضارية، وقد ورد في شعر الأعشى حيث قال:
إذا تقومُ يضوَعُ المسكُ صورةً والزنبقُ الوردُ من أردانها شمل¹
لقد ذكر الأعشى بالإضافة إلى المسك الوعاء الذي يحفظ به وهو الصوار.²
وفي بيت الأعشى إشارة إلى أنواع من الورد والزنبق، وهذه صورة تعكس معرفته للأزهار وأنواعها وربطها بالعطر حيث بعض الأنواع يستخلص منها الطيب.

وذكر امرؤ القيس القرنفل وهو نوع من الطيب له رائحة طيبة، حيث قال:
إذا التفت نحوي تَضَوُّع رِيحها نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بِرِيًّا الْقَرْنَفُلِ³
وأشار عنتره إلى المسك بقوله:⁴
وَكَأَنَّ فَارَةَ تَاجِرٍ بِقَسِيمَةٍ سَبَقَتْ عَوَارِضَهَا إِلَيْكَ مِنَ الْفَمِ
"وغالباً ما تدل الفأرة على المسك لأنها أصله، والقسيمة من أوعية العطارين يجعل منها الطيب"⁵ وقد عرض عنتره صورة التاجر الذي يبيع العطر وهو العطار، ويدل ذلك أيضاً على معرفتهم للتجارة.

¹ - الأعشى: الديوان، ص 131.

² - مبيضين، ماهر، مظاهر الحضارة المادية في الشعر الجاهلي، دار عمار، الأردن، ط1، 2006، ص 87.

³ - امرؤ القيس: الديوان ص 15.

⁴ - عنتره: الديوان ص 16.

⁵ - المبيضين، مظاهر الحضارة المادية.

والعطر ليس فقط للأحياء ولكن للأموات أيضاً كما هو اليوم، فقد أشار زهير
ابن أبي سلمى إلى عطر منشم (منشم هو اسم امرأة مخزومية تباع العطر)¹ وقد
شروه لموتاهم حيث قال:²

تَدَارَكْتُمَا عَبَسًا وَذُبْيَانًا بَعْدَمَا تَقَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمَ عِطَرَ مَنْشَمٍ
وتنوعت أنواع العطور والمواد التي تأخذ منها، ولكن الأشهر هو المسك، فهو
معروف منذ القدم إلى الآن، ولعل في طريقة صنعها ما يدل على المظهر الحضاري
للعرب في ذلك العصر.

5.2 أدوات موسيقية:

يعد الحديث عن الأدوات الموسيقية من الجوانب الحضارية، وقد كانت
الموسيقى مرتبطة بمجالس اللهو والغناء والخمر، ولعل ظهورها في الشعر العربي
دلالة على تأثر العرب بالحضارة الفارسية، فأسماء بعض الآلات الموسيقية الواردة
في الشعر الجاهلي ألفاظ فارسية معربة، ومنها الصنج، وهو الذي يضرب الأصبع،
وهو عبارة عن صنجة مدورة من النحاس يضرب بها على آخر مثلها للطرب.³

يقول في ذلك الأعشى الذي تأثر بالحضارة الفارسية كما ذكر سابقاً:⁴
وَمُسْتَجِيبٌ تَخَالُ الصَّنْحُ يَسْمَعُهُ إِذَا تُرْجِعُ فِيهِ الْقَيْنَةُ الْفُضْلُ
وأشار عنتره إلى القصب، والقصب مما تصنع منه المزامير، حيث شبه
صوت الناقة عندما بركت بصوت المزامير، فقال:⁵

بَرَكْتُ عَلَى جَنْبِ الرِّدَاعِ كَأَنَّمَا بَرَكْتُ عَلَى قَصَبٍ أَجَشٍّ مُهْضَمٍ

6.2 الملابس:

عُرِفَت الملابس منذ القدم عند الأمم، وتطورت عبر الزمن من أقمشة
وزخرفه وألوان، لتتناسب والعصر الذي صنعت فيه وأصبح لكل قبيلة أو منطقة

¹ - الشيباني، شرح المعلقات، ص 129.

² - زهير، الديوان، ص 106.

³ - ابن منظور، لسان العرب مادة ون.

⁴ - الأعشى، الديوان، ص 133.

⁵ - عنتره، الديوان، ص 18.

لباسها الخاص بها والذي استمر بالبساطة ثم بدأ مع مرور السنين وتبدل الحضارات بالتطور التدريجي.

وتعددت صور الملابس في الشعر، فذكر الشعراء العديد مما تلبسه المرأة والرجل، ومن ذلك الوشاح وقد ذكره الأعشى، بقوله:¹
صِفْرُ الْوَشَاحِ، وَمِلءُ الدَّرْعِ بِهَكْنَةٍ إِذَا تَأْتِي يَكَاذُ الْخَصْرِ يَنْخَزِلُ
وهذا الوشاح حدد لونه بالأصفر الذي غطى محبوبته كاملاً، وقد لبست تحته الدرع.

وقد ذكر طرفة في معلقته البرجد (هو كساء مخطط)²، أو نوع من القماش المخطط الذي يصنع منه الملابس، ويدل على صناعة أنواع مختلفة من القماش، حيث قال:³

أُمُونٌ كَأَلْوَاكِ الْإِرَانِ نَصَاتُهَا عَلَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجِدٍ
ومن صناعات الملابس كذلك صناعة الحرير الدمقس وهو (الحرير الأبيض)⁴، يقول امرؤ القيس في تشبيه اللحم بالحرير:⁵

فَظَلَّ الْعَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا وَشَحْمٍ كَهَذَابِ الدَّمَقْسِ الْمُفْتَلِ
وقد عرفوا من الصناعات صناعة النعال والتي صنعوها من الجلد بالسبت اليماني فاليمن كانت مشهورة بصناعة هذا الجلد في ذلك يقول طرفة:⁶
وَحَدَّ كَقَرطَاسِ الشَّامِيِّ وَمِشْفَرٍ كَسَبَتِ الْيَمَانِي قَدَّهُ لَمْ يُجَرِّدِ
وذكر عنتره صناعة النعال أيضاً (نعال السبت) وهي المدبوغة بالقرظ فقد كانت تصنع للملوك.⁷

بَطْلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ يُحْدِي نِعَالَ السَّبْتِ لَيْسَ بِتَوَامٍ

¹ - الأعشى: الديوان، 131.

² - أبوزيد، علي إبراهيم، طرفة شاعر البحرين في الجاهلية، دار الكتاب الجامعي، العين، ط1، 1993 ص 112.

³ - طرفة الديوان: ص 27.

⁴ - امرؤ القيس: الديوان، ص 11.

⁵ - المصدر نفسه، ص 11.

⁶ - طرفة: الديوان، ص 30.

⁷ - التبريزي، شرح المعلقات، ص 216.

وقد تميز الملوك في لباسهم بلبس التاج وهذه من صور الحضارة وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم:¹

وَسَيِّدٍ مَعَشَرَ قَدْ تَوَجَّوْهُ
بِتَاجِ الْمُلْكِ يَحْمِي الْمُحْجَرَيْنَا

وهذه من الصور التي تأثروا بها من الحضارات الأخرى.
وفي هذا النوع من الصناعات يبدو الأثر الفارسي واضحاً في البيئة العربية في العصر الجاهلي.

7.2 المساكن

كانت القبائل العربية في البيئة الصحراوية منذ القدم تعيش في خيام تنتقل بها بحثاً عن الكلاً والماء، وهذا النوع من المساكن يناسب طبيعة هذه الحياة، وكانوا يصنعونها من شعر الماعز المتوفر لديهم، ولكن مع تطور الحضارات وتأثرها ببعضها أصبح بعضهم يبحث عن الاستقرار والثبات خصوصاً مع معرفة الزراعة، وأدى هذا إلى بناء البيوت من الطين أو حسب ما يتوافر لديهم ويسمونهم الآطان، ثم تطور البناء حتى بنوا القصور، وقد ذكر الشاعر الجاهلي طبيعة سكنه فيذكر الخيام عند حديثه عن الأطلال، كما ذكر الحصون، والقصور، وتتمثل الصورة الحضارية في البناء بطريقة العمران وأدواته وبخاصة عند الشعراء الذين عاشوا في بيئات حضارية مثل الاعشى وامرئ القيس.

وتتمثل الصورة الحضارية في المسكن في طبيعة هذا المسكن والتطور الذي يحدث له مع تطور العصور.

فالبدوي البسيط الذي كان يصنع بيته (الخيمة من الشعر) يذكرها وقت الرحيل، وقد اهتم الشاعر بطبيعة السكن التي عاشها إنسان عصره، فرسم بعضاً من الصور للخيمة العربية القديمة بأعمدتها وما حول ذلك من نوى وأثاث²، وفي ذلك يقول زهير:³

¹ - عمرو بن كلثوم: الديوان ص 71.

² - الرباعي، عبدالقادر، الصور الفنية في شعر زهير، دار العلوم، المملكة العربية السعودية، ط1، 1984، ص 61.

³ - زهير: الديوان، ص 103.

أَثَافِي سُفْعًا فِي مُعَرَّسٍ مَرَجَلٍ وَنُؤْيَا كَجَذْمِ الْحَوْضِ لَمْ يَنْتَلَمْ

فالأثافي والمرجل والنؤى، والأعمدة، والخيمة، والرماد الهامد، المتبلد، كلها عناصر لبیت العربي القديم (الخيمة) استعارها الشاعر ورسم صورة لها.¹

والمرجل هو ما يطبخ عليه من حجارة أو حديد، والنؤى الحاجز يحمل الجياد ويمنع من التسلل، الجذم البئر والأثافي الحجارة التي يجعل عليها القدر، والمعرس الموضع الذي يوضع فيه المرجل². وفي ذلك صورة حضارية بسيطة.

وممن أشار إلى الآطام وهي من الصور الحضارية امرؤ القيس حيث بين أنها محكمة لأنها بنيت من حجارة ضخمة، يقول:

وَتِيْمَاءَ لَمْ يَتْرُكْ بِهَا جِذْعَ نَخْلَةٍ وَلَا أَطْمًا إِلَّا مَشِيدًا بِجَنْدَلٍ³

لقد أشار امرؤ القيس إلى الأطم وهي بيوت تصنع من الحجارة .

وشبه طرفة بن العبد فخذي ناقلته بالقصر المشرف وهو بذلك ينقل بعداً حضارياً في ذكره للقصور حيث قال:⁴

لَهَا فِخْذَانِ أَكْمَلَ النَّحْضِ فِيهِمَا كَأَنَّهُمَا بَابَا مُنِيفٍ مُمَرَّدٍ

وتتضح الصور الحضارية أيضاً في حديث الشاعر عن تصميمهم بناء القصر من الداخل، وما فيه من شرف وأبواب، وتدل هذه الصورة على إنجاز حضاري.⁵

ومن صور البناء التي تدل على الحضارة كذلك القناطر، وقد أشار إليها طرفة ابن العبد في معرض حديثه عن ناقلته حيث قال:⁶

لَهَا مَرَفَقَانِ أَفْتَلَانِ كَأَنَّمَا تَمَرُّ بِسَلْمِي دَالِجٍ مُتَشَدِّدٍ

كَقَنْطَرَةِ الرُّومِيِّ أَفْسَمَ رَبُّهَا لَتَكْتَفِنَنَّ حَتَّى تُشَادَ بِقَرْمَدٍ

¹ - الرباعي، الصور الفنية في شعر زهير، ص 6.

² - الشيباني، شرح المعلمات، ص 14.

³ - امرؤ القيس، الديوان، ص 25.

⁴ - طرفة: الديوان، ص 28.

⁵ - المبيضين، مظاهر الحضارة المادية في الشعر الجاهلي، ص 248-249.

⁶ - طرفة: الديوان ص 25.

وقد نسبها إلى الرومي، لأن الروم اشتهروا بالعمارة الفنية المتقنة القادرة على حماية أصحابها من عوادي الطبيعة.¹

وقد ذكر في الشعر مواد البناء، فطرفة أشار إلى القرمذ وهو ما شيدت به القنطرة، ويبدو أنه نوع من أنواع الجبص، ويظهر أن البناء المقرمذ كان يتصف بالأحكام والصلابة، ولهذا تكرر في الشعر الجاهلي تشبيه الناقلة القوية بالبناء المقرمذ²، ومن ذلك قول عنتره:³

أَبْقَى لَهَا طُولُ السَّقَارِ مُقْرَمِذًا سِنْدًا وَمِثْلَ دَعَائِمِ الْمُتَخَيِّمِ

فقد ذكر كذلك دعائم الخيمة وهي تجعلها ثابتة وهذه صورة بدوية أثرت في الشاعر رغم صور الحضارة التي رآها في سفره وتجوّاله. وذكر الأبنية والقصور كلها من المؤثرات في القصيدة الجاهلية، وألفاظ الحضارة كانت زادا للشعراء ومادة للتشبيه أيضاً.

8.2 أدوات الكتابة

تشير بعض العلامات في الشعر العربي وغيره على معرفة العرب بالكتابة، وأدواتها، مثل النقش والرسوم على الحجارة وغيرها، وثمة آيات قرآنية أكدت معرفة الكتابة عند العرب في الجاهلية، ومن ذلك قوله تعالى: "وقالوا: أساطير الأولين اكتتبها فهي تملي عليه بكرة وأصيلاً" الفرقان: الآية (5).

وقد ورد في الشعر العربي العديد من الأسماء لأدوات الكتابة ومن هذه الأدوات (المهراق) التي استخدمت في كتابة الأحلاف، وفي ذلك يقول الحارث بن حلزة:⁴

وَأَذْكُرُوا حَلْفَ ذِي الْمَجَازِ وَمَا قُدِّمَ فِيهِ الْعُهُودُ وَالْكَفْلَاءُ
حَذَرَ الْجَوْرِ وَالتَّعَدِّيِّ وَهَلْ يَنْقُضُ مَا فِي الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءُ

¹ - أبوسويلم، أنور، الحضارة والمعتقد في الشعر الجاهلي، دار عمار، الأردن، 1990، ص 230.

² - المبيضين، مظاهر الحضارة المادية في الشعر الجاهلي، ص 282.

³ - عنتره: الديوان، ص 18.

⁴ - الحارث بن حلزة، الديوان، ص 36.

والمهارق نوع من الثياب البيض أو الحرير الأبيض، تسقى بالصمغ ثم يكتب عليها.¹

ومما يدل على معرفة الكتابة ما ورد في معلقة لبيد حيث يقول:

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمَقَامُهَا	بِمَنَى تَابَّدَ غَوْلُهَا فَرَجَامُهَا
فَمَدَافِعُ الرِّيَّانِ عُرِّيَ رَسْمُهَا	خَلَقًا كَمَا ضَمِنَ الْوَحْيُ سِلَامُهَا
وَجَلَا السُّيُولُ عَنِ الطُّلُولِ كَانَهَا	زُبُرٌ تُجَدُّ مُتُونَهَا أَقْلَامُهَا ²

لقد ذكر لبيد في معلقته النقش على الحجر وهي من الأساليب القديمة التي شاعت قبل معرفة أدوات الكتابة الأخرى وهي تبقى ثابتة، وأشار إلى أداة من أدوات الكتابة هي الأقلام.

ومن أدوات الكتابة قرطاس الشامي، "ويمكن أن يكون الورق الأبيض الناصع، لانسجام المعنى اللغوي مع مراد الشاعر والأغلب أنه أراد بالقرطاس ورق البردي لا الجلد، لأنه ذكرها فيما يقابل السبت وهو الجلد المدبوغ".³

ومعرفة الكتابة وأدواتها وصنع هذه الأدوات كلها صورة حضارية للحياة الجاهلية، فالكتابة من علامات الحضارة حيث تطورت من الحجارة إلى الجلد ثم الورق وكذلك أدواتها.

9.2 الإنارة:

يبدو الجانب الحضاري في طريقة الإنارة وتطور أساليبها من الطور البسيط إلى طور أكثر تقدماً وحضارة، يقول الحارث بن حلزة:⁴

وَبِعَيْنَيْكَ أَوْقَدْتَ هِنْدُ النَّارَ	أَخِيرًا تُلْوِي بِهِ الْعَلْيَاءُ
فَتَنَوَّرَتْ نَارُهَا مِنْ بَعِيدٍ	بِخَزَازِي هَيْهَاتَ مِنْكَ الصَّلَاءُ
أَوْقَدْتَهَا بَيْنَ الْعَقِيقِ فَشَخَصَيْنِ	بِعُودٍ كَمَا يُلُوحُ الضِّيَاءُ

¹ - ابن منظور، لسان العرب مادة (هرق).

² - لبيد، الديوان، 297.

³ - صديق، المعلقات السبع، ص 146.

⁴ - الحارث: الديوان، ص 20-21.

فهذه الأبيات تشير إلى صورة حضارية عند الجاهلي البسيط الذي أشعل النار لينير بها على نفسه وليهدي بها التائه في عتمة الصحراء.

ومع تطور الحضارات واختلاطها مع بعضها البعض عرف الجاهلي الإنارة بالذبال والفتيل، وكذلك معرفته بالزيت الذي يشعل به النار واستخدامه ليوقد الفتيل فقد أشار إلى هذا المظهر امرؤ القيس بقوله:¹

يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ أَهَانَ السَّلَيطَ بِالذُّبَالِ الْمُقْتَلِ
وأشار إلى ذلك الأعشى أيضاً بقوله:
لَا تَنْتَهُونَ وَلَنْ يَنْهَى ذَوِي شَطَطٍ كَالطَّعْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَّيْتُ وَالْفُتْلُ
لقد انتقل الجاهلي من الإنارة بالنار إلى الزيت والفتل والمصابيح وهذه نقلة حضارية، التفت إليها بعض شعراء المعلقات.

10.2 السفن:

عرّف الجاهلي السفن، وصناعاتها، واستخدمها في التجارة والنقل عبر البحار، وقد ورد ذكرها كملح حضاري في الشعر الجاهلي، ومن ذلك قول طرفة ابن العبد الذي أثرت فيه بيئته البحرية فهو من البحرين، وصور السفن في البحر كانت منظراً مألوفاً بالنسبة له، حيث قال:²

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوءَ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدٍ
عَدُولِيَّةٍ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنٍ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي

11.2 أدوات الطعام والشراب:

لقد عرف الجاهلي طهي الطعام وتفنن في طريقة إعداده، وكان يستخدم له أدوات معينة تقوم على صناعتها مثل المرجل وهو القدر يقول امرؤ القيس:

على العقبِ جِيَّاشٍ كَأَنَّ اهْتِرَامَهُ إِذَا جَاشَ فِيهِ حَمِيَّةٌ غَلِيٌّ مَرَجَلٍ

¹ - امرؤ القيس: الديوان، ص 23.

² - طرفة: الديوان، ص 26.

ويبدو أن العرب في ذلك العصر قد استخدموا أدوات مختلفة في طهي الطعام وطريقة إعداده منها ما كان بسيطاً في صنعه، وفي مادته الأولية، ومنها ما وصلهم عن طريق الأمم الأخرى.

ويعد الإبريق من أدوات الشراب المتعلقة بالخمير، وقد كان يسمى أحياناً بالأزهر، وقد أشار إليه عنتره في حديثه عن الخمر، وقرن ذكره بالزجاجة، حيث قال: ¹

زُجَاجَةٌ صَفْرَاءُ ذَاتِ أُسْرَةٍ قُرْنَتْ بِأَزْهَرٍ فِي الشَّمَالِ مُقَدَّمِ
وأشار الأعشى إلى الدلو الذي يستخدم لسحب الماء، وهو الذي كان يسمى السَّجَل، قد وظفه توظيفاً فيه إبداع عندما وصف السحاب والبرق: ²
بَلْ هَلْ تَرَى عَارِضاً قَدْ بَتَ أَرْقُبُهُ كَأَنَّمَا الْبَرْقُ فِي حَافَاتِهِ الشُّعْلِ
لَهُ رِدَافٌ، وَجَوْزٌ مُفَامٌ عَمَلٌ، مُنْطَقٌ بِسِجَالِ الْمَاءِ مُتَّصِلٌ
ومن أدوات الشراب أيضاً، الأدكن ويعني الزق الضخم، قد أشار إليه لبيد في معلقته حيث قال: ³

أَغْلَى السَّبَاءَ بِكُلِّ أَدْكَنٍ عَاتِقٍ أَوْ جَوْنَةٍ قُدِحَتْ وَفُضَّ خِتَامُهَا

12.2 مظاهر حضارية مختلفة:

ذكر الشعراء بعض الصناعات التي تدل على المظاهر الحضارية ومن ذلك صناعات الجلد المدبوغ غير النعال، المحمل وهو ما يدبغ به السيف والسرّج واللجام يقول امرؤ القيس: ⁴

فَفَاضَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَ دَمْعِي مِحْمَلِي
فَبَاتَ عَلَيْهِ سَرَجُهُ وَلِجَامُهُ وَبَاتَ بَعَيْنِي قَائِماً غَيْرَ مُرْسَلٍ ⁵

¹ - عنتره بن شداد: الديوان، ص 206.

² - الأعشى: الديوان ص 132.

³ - لبيد: الديوان، ص 314.

⁴ - امرؤ القيس: الديوان، ص 9.

⁵ - امرؤ القيس: الديوان، ص 21.

ومن الصناعات الجلدية صناعة الدرع وقيل الترس، وهي تعمل من جلود الإبل في بلاد اليمن، يقول عمرو بن كلثوم:

عَلَيْنَا الْبَيْضُ وَالْيَلْبُ الْيَمَانِي وَأَسْيَافُ يَقْمُنَ وَيَنْحَنِينَا¹

وكانت العرب تعرف طرقاً لمعالجة الحيوان والإنسان، وهذه من المظاهر الحضارية فكانت (الإبل إذا أصابها الجرب تغسل بالقطران)². والقطران نفسه الكحيل، وقد أشار إلى ذلك عنتره بقوله:³

وَكَأَنَّ رَبًّا أَوْ كُحَيْلًا مُقْعَدًا حَشَّ الْوَقُودُ بِهِ جَوَانِبَ قُمْمٍ

وعرفت العرب صناعة الثياب وتزيينها، وكذلك صبغها بألوان مختلفة، وقد أشار إلى ذلك عمرو بن كلثوم في تصويره لشدة القتال مع أعدائه حيث إن ثيابهم من شدة الدم غيرت كأنها مصبوغة باللون الأرجواني حيث يقول:⁴

كَأَنَّ ثِيَابَنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ خُضِبْنَ بِأَرْجَوَانٍ أَوْ طُلِينَا

ومن المظاهر الحضارية أيضاً صناعة الحلي والزينة، وبخاصة ما كانت مادته اللؤلؤ المستخرج من عرض البحر، فقد أشار طرفة بن العبد إلى ذلك حيث قال:⁵

وَفِي الْحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ الْمَرْدَ شَادِنٌ مُظَاهِرُ سِمْطِي لُؤْلُؤٌ وَزَبْرَجِدٍ

لقد ذكر بالإضافة إلى اللؤلؤ الزبرجد وهو من الحلي فذكر السمط أي (خيط من لؤلؤ وخيط من زبرجد).⁶

وأشار لبيد إلى الجمانة حيث قال:⁷

وَتُضِيءُ فِي وَجْهِ الظَّلَامِ مُنِيرَةً كَجَمَانَةِ الْبَحْرِيِّ سُلَّ نِظَامُهَا

وقد بين لبيد أن البحري والمقصود به الغواص هو الذي يخرج الجمان وهو

اللؤلؤ.

¹ - عمرو: الديوان، ص 84.

² - التبريزي، شرح المعلقات، ص 209.

³ - عنتره، الديوان، ص 19.

⁴ - عمرو بن كلثوم: الديوان، ص 76.

⁵ - طرفة: الديوان، ص 26.

⁶ - ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم، شرح القصائد السبع الطوال، تحقيق عبدالسلام جبار، دار المعارف، 1963، ص 14.

⁷ - لبيد: الديوان، ص 309.

واستخدم العرب الحناء في صباغة الجلد والرأس، وكان إذ غطى رأس المرء شيباً صبغه بالحناء ليغطي هذه الشيب، يقول امرؤ القيس: ¹

كَأَنَّ دِمَاءَ الْهَادِيَاتِ بَنَحَرِهِ عَصَارَةُ حِنَاءٍ بِشَيْبِ مُرْجَلٍ

ومن الأدوات التي عرفها الجاهلي الرحي التي تطحن الحبوب، وهذه صورة حضارية وقد أشار إليها عمرو بن كلثوم في معرض تشبيهه الحرب وهي تطحن الأعداء بالرحى التي تطحن الحبوب، حيث قال: ²

مَتَى نَنْقُلْ إِلَى قَوْمٍ رَحَانَا يَكُونُ ثِقَالُهَا شَرْقِيَّ نَجْدٍ
يَكُونُوا فِي اللَّقَاءِ لَهَا طَحِينَا وَلَهُوْتُهَا قُضَاعَةٌ أَجْمَعِينَا

ووردت هذه الصورة أيضاً في قول زهير: ³

فَتَعْرُكُكُمْ عَرَكَ الرَّحَى بِثِقَالِهَا وَتَلْفَحُ كِشَافاً ثُمَّ تُتَجِّجُ فَتَنْتَمِ
وأشار الشاعر إلى أن الثقال وهو الجلد الذي يوضع تحت الرحي، دلالة على إحكام صناعتها.

ومن الصور الحضارية أيضاً صناعة الهودج، وهو مركب للنساء وزخرفته فذكره الشعراء وذكروا ما يحيط به من كلل وأقمشة قد تتم عن الترف، ومن ذلك قول لبيد: ⁴

شَاقَتْكَ ظُعْنُ الْحَيِّ حِينَ تَحْمَلُوا فَتَكَنَسُوا قُطْنًا تَصِرُ خِيَامُهَا
مِنْ كُلِّ مَحْفُوفٍ يُظِلُّ عَصِيَّهُ زَوْجٌ عَلَيْهِ كِلَّةٌ وَقِرَامُهَا

وقول زهير: ⁵

تَبَصَّرَ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ طَعَائِنِ تَحْمَلْنَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْتُمِ
جَعَلْنَ الْقَنَانَ عَنْ يَمِينٍ وَحَزْنَهُ وَكَمْ بِالْقَنَانِ مِنْ مُحِلٍّ وَمُحْرِمِ
عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَكِلَّةٍ وَرَادٍ حَوَاشِيَهَا مُشَاكِهِةُ الدَّمِ
وَوَرَكْنَ فِي السُّوبَانِ يَعْطُونَ مَنَّتَهُ عَلَيْهِنَّ دَلُّ النَّاعِمِ الْمُتَنَعِّمِ

¹ - امرؤ القيس: الديوان، ص 23.

² - عمرو بن كلثوم: الديوان، ص 72.

³ - زهير، الديوان، ص 107.

⁴ - لبيد: الديوان، ص 300.

⁵ - زهير: الديوان ص 103- 104.

وذكر الوشم من أغراض الزينة للرجال والنساء وقد ذكره الشعراء من باب حديثهم عن الأطلال وتشبيهه بدار المحبوبة، وذكر الوشم من باب الشيء الذي لا يزول فهم يعرفونه ويعرفون المواد التي تصنع منه وكيفية رسمه على اليد وهذا من الصور الحضارية، يقول طرفة بن العبد:¹

لِخَوْلَةٍ أَطْلَالٌ بِرُقَّةٍ تَهْمَدُ تُلُوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ
وقول زهير:²

وَدَارٌ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا مَرَجِيْعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمٍ

¹ - طرفة: الديوان، ص 25.

² - زهير: الديوان، ص 102.

الفصل الثالث

الذوق الجمالي في شعر المعلقات (المرأة)

شغلت المرأة الشعراء قديماً وحديثاً، وتميز ظهورها في الشعر الجاهلي، فلا تكاد تلمح قصيدة جاهلية تخلو من ذكر المرأة وأطلالها أو التغزل بها. فعالم المرأة هو عالم الأنوثة الفياض بما فيه من سحر وجمال وفتنة، وعطر وزينة، ولين ونعومة، لذلك كان لهذا العالم خصوصيته في الشعر، فهو يقوم على الجمال والمرأة بكل ما فيها حتى الجمال.¹

والبدوي حين يتعرض في تصويره للمرأة ينعتها بكل ما هو مستحب لديه ويجعلها هدفه المنشود ويشبهها أجمل تشبيه ينتزعه من مظاهر الطبيعة المحيطة به، ويمتاز وصفه لها بالجرأة والصدق فهو يقدم إليها أعز ما يملك حتى الروح ويفتيديها بكل شيء من أجل أن يستحوذ على قلبها ويكتسب حبها، فهو يحيا حياتها له وهي تعيش لإرضائه وكان يسهب ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أجزاء وصفها إلا وتناولها في سياق حديثه.²

وظهرت المرأة في الشعر الجاهلي بعامة وفي المعلقات بخاصة، ولم تخل واحدة منها من ذكر المرأة، ووصف الهيام بها والحنين إلى لقاءها والجزع لفراقها، وفي مطالع المعلقات من ذلك شيء كثير، وفي معظمها شيء كثير، أيضاً من الحديث عنها، ووصف ما يتكلفه العربي في التدريب إليها وما يتجشم من الأخطار ليببدو في نظرها صورة البطل، الجدير بإعجابها، الذي يحمي حماها، ويقاقل من أجلها، وهي تحايله في حركاته وسكناته، ولا ينساها في أوقات السلام وفي ميادين الوغى ومصارعة الأبطال، وهذا كله يدل على ما كانت المرأة العربية تنعم به من المنزلة في المجتمع، وما كانت تشغل من قلب الرجل العربي في الجاهلية.³

¹ - يوسف، حسني عبدالجليل، عالم المرأة في الشعر الجاهلي، الدار الثقافية، القاهرة، ط1، 1998، ص 6.

² - عبدالعزيز، عيسى حماد، صراع الإنسان ضد وحش الصحراء، (عند أصحاب المعلقات)، رسالة ماجستير، 1989-1990، ص 400.

³ - طبانه، معلقات العرب، ص 213.

وتعددت صور المرأة في الشعر الجاهلي بما فيه شعر المعلقات من أم وزوجة، ورفيقة، وقينة، وبرزت فيه صورة جمالية للمرأة

1.3 صورة المرأة في الأطلال:

ظهرت المرأة بصورتها الجمالية في أغلب مطالع المعلقات، حيث وصف الشاعر ديارها وديار أهلها الراحلين ووقوفه واستيقافه أصحابه عندها لمدة من الزمن يتأمل الديار ويصف حالها قبل وبعد الرحيل، ولعل هذا يدل على مدى تعلق الشاعر بمحبوبته، فهو يذهب إلى آثارها في الطلل كناية عن شدة شوقه وولعه بها وقد يذكر اسم هذه المحبوبة وهو يتحدث عنها.

وزخرت المعلقات بالحديث عن الأطلال ومن ذلك قول طرفة:¹

لَخَوْلَةٍ أَطْلَالٌ بِرُقَّةٍ تَهْمَدُ	تَلُوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ
وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهْمُ	يَقُولُونَ لَا تَهْلِكُ أَسَىٍّ وَتَجَلَّدِ
كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدْوَةٌ	خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدِ

لقد ذكر طرفة أطلال امرأة بعينها هي خولة التي قد يكون اسمها الحقيقي أو لقباً لها، لقد وضح الجاهلي صورة المرأة من خلال الحديث عن ديارها وأطلالها وما بقي لها من آثار.

يصور طرفة موقف الرحيل، وما ينتابه من إحساس بالأسى واللوعة، ويصف مركب الحبيبة، وهي على أهبة الرحيل²، وقد شبه هودجها بالسفن العظيمة.

وزهير في مطلع معلقته ذكر أم أوفى التي يرجح أن تكون زوجته، يقول:³

أُمُّنْ أُمُّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلِّمْ	بِحَوْمانَةِ الدُّرَّاجِ فَالْمُنْتَلَمِ
وَدَارُ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا	مَرَجِيعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ

¹ - طرفة: الديوان، ص 25-26.

² - بوبعيو، بوجمعة، جدلية القيم في الشعر الجاهلي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص

45.

³ - زهير: الديوان، ص 102.

وممن ذكر أطلال محبوبته عنتره بن شداد فقد بدأ معلقته بسبب صريح، فقد عرف الطلل بعد توهم، ولما عرفه جعل فيه شخصاً ماثلاً وطلب منه الكلام والرد على تحيته على الرغم من انه طللٌ خالٍ مقفر بعد رحيل الحبيبة¹ يقول: ²

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مَنْ مُتَرَدَّمٍ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمٍ
يَا دَارَ عِبْلَةَ بِالْجَوَاءِ تَكَلَّمِي وَعَمِّي صَبَاحاً دَارَ عِبْلَةَ وَاسْلَمِي
حُبَيْتَ مَنْ طَلَّلَ تَقَادَمَ عَهْدُهُ أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ

لقد ذكر عنتره اسم محبوبته صريحاً ثم لقبها أم الهيثم وابنة مخزم وعبلة هي محبوبته وابنة عمه.

ولكن تظهر صورة أخرى للمرأة في الطلل فبدل أن تكون هي الراحلة دون أي خبر، فهي التي تعلن بعزمها على الفراق وفي ذلك يقول الحارث بن حنظل: ³

أَذْنَتْنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رُبَّ نَاوٍ يُمِلُّ مِنْهُ النَّوَاءُ

2.3 وصف المرأة

لقد وصف الشعراء المرأة وتغزلوا بها حسیاً ومعنوياً، وتتضح ملامح الجمال من خلال وصف مشهد رحيلها وتحملها في الهودج، فيقول لبید في ذلك: ⁴

شَاقَتْكَ ظُعْنُ الْحَيِّ حِينَ تَحَمَّلُوا فَتَكَنَسُوا قُطْنًا تَصِرُ خِيَامُهَا
مِنْ كُلِّ مَحْفُوفٍ يُظِلُّ عَصِيَّهُ زَوْجٌ عَلَيْهِ كِلَّةٌ وَقِرَامُهَا
زُجَلًا كَانَ نِعَاجٌ تُوَضِّحُ فَوْقَهَا وَظَبَاءٌ وَجَرَّةٌ عُطَفَا أَرَامُهَا
حُفَزَتْ وَزَايِلُهَا السَّرَابُ كَأَنَّهَا أَجْزَاعُ بِيْشَةٍ أَثْلُهَا وَرِضَامُهَا
بَلْ مَا تَذَكَّرُ مِنْ نَوَارٍ وَقَدْ نَأَتْ وَتَقَطَّعَتْ أَسْبَابُهَا وَرِمَامُهَا
مُرِيَّةٌ حَلَّتْ بِفَيْدٍ وَجَاوَرَتْ أَهْلَ الْحِجَازِ فَأَيْنَ مِنْكَ مَرَامُهَا

لم ينس لبید لحظة وداع محبوبته، فهو يعيشها بكل وقائعها فلن ينسى تلك اللحظة التي صعدت فيها النساء إلى هودجهن كأنهن الأطباء فدخلن الكناس، ولن

¹ - صديق، حسن بشير، المعلقات السبع، ص 81.

² - عنتره: الديوان، ص 14.

³ - الحارث: الديوان ص 19.

⁴ - لبید: الديوان ص 300-301.

ينسى ذلك الإحساس الذي غمره عندما شاهد صديقاته وهن يتحملن جماعات فأحس بما ينبعث من عيونهن من عطف ورقة، وبما تفيض به وجوههن من مشاعر الحنان والحب.¹

لقد وصف لبيد صورة النساء في الرحيل وهي صورة مستوحاة من بيئته وكذلك تشبيهاته، فقد شبهها بالظباء وتشبه النساء بالظباء والغزلان وغيرها في الشعر الجاهلي.

وممن وصف محبوبته ورحيل النساء زهير بن أبي سلمى الذي أظهر ذوقاً جمالياً للمرأة حيث قال:²

تَحْمَلْنَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْثَمٍ	تَبَصَّرَ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ طَعَائِنٍ
وَكَمْ بِالْقَنَانِ مِنْ مُحِلٍّ وَمُحَرِّمٍ	جَعَلْنَ الْقَنَانَ عَنْ يَمِينٍ وَحَزْنَهُ
وَرَادٍ حَوَاشِيَهَا مُشَاكِهَةً الدَّمِ	عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عَتَاقٍ وَكَلَّةٍ
عَلَى كُلِّ قَيْنِي قَشِيبٍ وَمُقَامٍ	ظَهَرْنَ مِنَ السُّوبَانِ ثُمَّ جَزَعْنَهُ
نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَاءِ لَمْ يُحَطِّمْ	كَأَنَّ فُتَاتَ الْعَهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ
فَهُنَّ وَوَادِي الرَّسِّ كَالْيَدِ لِلْفَمِ	بَكَرْنَ بُكُورًا وَاسْتَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ
وَضَعْنَ عَصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ	فَلَمَّا وَرَدْنَ الْمَاءَ زُرُقًا جَمَامُهُ

لقد بين زهير كيفية الرحيل وما تحمله المرأة من متاع وأثره الباقي "إن زهيراً يتخيل مسار الرحلة موضعاً موضعاً ويتابع المرتحل في كل خطوة يخطوها، وقلبه يهتز أثراً للوعة وضلوعه ترتجف من حرقه الجوى³، وقد بدأت رحلتهم من جرثم وطرحن وعلى رواحلهن أنماط كريمة وستور، وردية الحواشي، ثم ذكر مراحل ارتحالهن ونزولهن في بلاد بني أسد، فما كدن يجتزن وادي الرس حتى أشرفن على جبل القيان، ومضين بعدئذ نجزن عن وادي السوبان وعلون متته، وقد توفر لهن جميع أسباب الراحة والرفاهية، والصوف الملون يتساقط من هوداجهن، حتى إذا بلغن الماء حططن رحلهن"⁴.

¹ - العشماوي، النابغة الذبياني، ص 241.

² - زهير، الديوان، 103-105.

³ - عامر، أحمد فتحي، مرآة الشعر الجاهلي، دار المعارف الإسكندرية، ص 346.

⁴ - النص، إحسان، زهير بن أبي سلمى حياته وشعره، دار الفكر، دمشق، ط2، 1985.

تعددت صفات الجمال الحسي في الشعر الجاهلي، فقد تغزل الشعراء بالمرأة بمظاهر جمالية عدة، فوصفوا طولها وخصرها ولون بشرتها وغيرها من الصفات التي تجذب الرجل للمرأة بشكل عام.

ومن ذلك قول امرئ القيس يصف محبوبته:¹

وَبَيْضَةُ خَدْرٍ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا	تَمَنَعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلٍ
تَجَاوَزَتْ أَحْرَاسًا وَأَهْوَالَ مَعَشَرٍ	عَلَى حِرَاصٍ لَوْ يُشْرُونَ مَقْتَلِي
مُهْفَهْفَةٌ بَيضاء غَيْرُ مُفَاضَةٍ	تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنَجَلِ
كَبِكَرٍ مُقَانَةِ الْبَيَاضِ بِصُفْرَةٍ	غَذَاهَا نَمِيرُ الْمَاءِ غَيْرُ الْمُحَلَّلِ
تَصُدُّ وَتُبْدِي عَنْ أَسِيلٍ وَتَتَّقِي	بِنَاطِرَةٍ مِنْ وَحْشٍ وَجَرَةٍ مُطْفَلِ
وَجِيدٍ كَجِيدِ الرَّثْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ	إِذَا هِيَ نَصَّتُهُ وَلَا بِمُعْطَلِ
وَفَرَعٍ يَعْشَى الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ	أَثِيبٌ كَقَنَوِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَكِّلِ
غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى الْعُلَا	تَضِلُّ الْمَدَارِي فِي مَتْنِي وَمُرْسَلِ
وَكَشْحٍ لَطِيفٍ كَالْجَدِيلِ مُخَصَّرٍ	وَسَاقٍ كَأَنْبُوبِ السَّقِيِّ الْمَذَلَّلِ
تُضِيءُ الظَّلَامَ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهَا	مَنَارَةٌ مُمَسَّى رَاهِبٍ مُتَبَتِّلِ
وَتُضْحِي فَتَيْتُ الْمِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا	نَوْمُ الضُّحَى لَمْ تَتَنَطَّقْ عَنْ تَفَضُّلِ
إِلَى مِثْلِهَا يَرْنُو الْحَلِيمُ صَبَابَةً	إِذَا مَا اسْبَكَرَتْ بَيْنَ دِرْعٍ وَمِجْوَلِ

فمحبوبته لطيفة الخصر ضامرة البطن، بيضاء صدرها متلألئ براق مثل المرأة في نقائه وبياضه، وهي مثل بيضة النعام التي تخالط بياضها صفرة يسره، وهذا المزيج من اللونين أجمل ألوان بشرة المرأة عند العرب وإن كان نادراً، فهو يرى ترائبها مصقولة كأنها مرآة، وتغنى بعينها عين بقرة وحشية من وجرة ذات طفل عالقة عليه، وهي ترنو إليه بعينيهما الواسعتين الجميلتين فيكون ذلك أدعى إلى العطف والشفقة، أما الجيد فهو كجيد الطبي دقة وطولا، وشعرها كثيف طويل منسدل على ظهرها، له ذوائب، مثل عنقود النخلة الملتف بعضه حول بعض وأمتاز شعرها بلونه الأسود الفاحم كأنه في تجعده أغصان نخيل، وأما ظهرها وساقها فهما من الإبداع في التكوين كرماد الناقة ونبات البردي الأبيض الجميل المروي

¹ - امرؤ القيس، الديوان، 13-15.

المنعم بين أشجار النخيل، ثم هي كريمة تنام الضحى ويفوح المسك من فراشها وهذه المرأة متمعة مترفة، فهي لم تشهد عليها نطاقاً لتعمل لأن هناك من يقوم بخدمتها، ولهذا فأصابعها بيضاء مثل شجر الاسحل الذي يستاك به¹، وفي هذا الوصف تبدو صورة الذوق الجمالي للمرأة كما رآها الشاعر.

لقد جعل امرؤ القيس المرأة غاية لا يتيسر للمرء نوالها إلا إذا غامر بنفسه وواجه الأخطار، وكيف صار الحب بما يعنيه من غزو قلب المرأة ووصلها بعد التغلب على الحراس الأشداء.²

وقد وصف امرؤ القيس امرأة مخدورة مكنونة، لا تبرز للشمس ولا تظهر للناس، ولا يستطيع أحد أن يصل إليها لعزلتها ومنعتها.³

كما حرص امرؤ القيس على وصف كل جزء في محبوبته وبين خطوط هذا الجمال التي تفتن الرجل الجاهلي من عيون وشعر، وغيرها من الصفات، وليس غريباً أن يركز امرؤ القيس على ذكر مثل هذه الصفات، فقد تعددت علاقاته بالنساء وتنوعت. وقد احتلت المرأة مكاناً ظاهراً في شعره وقلما تخلو قصيدة أو مقطوعة من ذكرها حتى في إبان محنته والآمة فهي عروس شعره ومصدر من مصادر إلهامه وراحة قلبه ومطلقة لسانه.⁴

ومن أجمل ما وصفت به الحبيبة ما جاء في قول طرفة بن العبد في خولة حيث وصف كُحلَ العينين، وجمال الشفتين وطول الجيد وحسنه، واشرافة الابتسامة، فأسنانها أقحوان خرج نوره من دعفن ندي، وقد أضاف طرفة هذا الأقحوان إلى الدّعص الندي إمعاناً منه في المحافظة على أسنان محبوبته وجعل بريقها لازماً لا يرمم، أما وجهها فنقي تعكس نضارة الشمس وضياء الشمس فقد كسبته من النضارة والجمال⁵، يقول:⁶

¹ - عبدالعزيز، صراع الإنسان ضد وحش الصحراء ص 401، وصديق، المعلقات السبع، ص 73-74.

² - السيوفي، عصام، المرأة في الأدب الجاهلي، دار الفكر، بيروت، ص 1، 1991، ص 27.

³ - عامر، مرآة الشعر الجاهلي، ص 32.

⁴ - الحاوي، الصورة الفنية في شعر امرئ القيس، ص 222.

⁵ - صديق، المعلقات السبع، ص 74.

⁶ - طرفة، الديوان، 26-27.

وَفِي الْحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ الْمَرْدَ شَادِنٌ
خَذُولٌ تُرَاعِي رَبْرَبًا بِخَمِيلَةٍ
وَتَبْسِمُ عَنْ أَلْمَى كَأَنَّ مُنُورًا
سَقَتُهُ إِيَّاهُ الشَّمْسُ إِلَّا لِثَاتِهِ
وَوَجْهَهُ كَأَنَّ الشَّمْسَ أَلْقَتْ رِذَاءَهَا
مُظَاهِرُ سِمْطِي لَوْلُو وَزَبَرَجَدٍ
تَتَاوَلُ أَطْرَافَ الْبَرِيرِ وَتَرْتَدِي
تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دَعْصٍ لَهُ نَدٍ
أُسِفَ وَلَمْ تَكْدِمِ عَلَيْهِ بِإِثْمِدٍ
عَلَيْهِ نَقِيَّ اللَّوْنِ لَمْ يَتَّخِذْ

ويعلق أنور أبوسويلم على هذه الأبيات من ناحية تصويره للشمس فيقول: "والمرأة فاتنة ثغرها تتم عن ابتسامة تشبه أقحوانة بيضاء، انبثقت من رملة طاهرة ندية، وجمال ثغرها ووجها المصقول من ركاب من الشمس لمعبودة، فهي التي يسقيها أسنانها ماء الحياة وأتيت ثيابها فجاءت لامعة براقاة في ثغر ألى طبيعة وخلفة لا صناعة وتكلفاً وتحملاً، وقد أكسب شعاع الشمس ثغر خولة إشراقاً ونضارة، وكأنما أصبح ثغرها مصدراً للإشعاع والنور".¹

لقد صور طرفة جمال محبوبته وخصوصاً جمال ثغرها في بياضه ورائحته العطرة دائماً وهذه من الأوصاف المفضلة في المرأة العربية أيضاً. وتعددت النماذج في وصف المرأة عند الشعراء الجاهليين حتى أتوا على كل صفاتها، ومن ذلك ما جاء في قول الأعشى:²

وَدَّعْ هَرِيرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ مَرْتَحِلٌ
غَرَاءُ فِرْعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا
كَأَنَّ مَشِيَّتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا
تَسْمَعُ لِلْحَلِيِّ وَسَوَاسِئًا إِذَا انصَرَفَتْ
صِفْرُ الْوِشَاحِ وَمِلْءُ الدَّرْعِ بِهَكْنَةٍ
نَعْمَ الضَّجِيعُ غَدَاةَ الدَّجَنِ يَصْرَعُهَا
إِذَا تَقَوْمُ يَضُوعُ الْمِسْكُ أَصُورَةً
وَهَلْ تَطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرَّجُلُ
تَمْشِي الْهُوَيْنَا كَمَا يَمْشِي الْوَحْلُ
مَرُّ السَّحَابَةِ لَارِيثٌ وَلَا عَجَلُ
كَمَا اسْتَعَانَ بِرِيحٍ عَشْرَقَ زَجْلُ
إِذَا تَأْتَى يَكَاذُ الْخَصْرِ يَنْخَزِلُ
لِلذَّةِ الْمَرْءِ لَا جَافٍ وَلَا تَقْلُ
وَالزَّنْبِقُ الْوَرْدُ مِنْ أَرْدَانِهَا شَمِلُ

"فالمرأة عند الأعشى تمثال للجمال يرسمه شعره في إتقان وبراعة، فهي طويلة غير سرف، واضحة الجبين، مجلوته، ينسدل شعرها عليها، لم يكدر جمالها طفح أو

¹ - أبوسويلم، مظاهر من الحضارة والمعتقد، ص 18.

² - الأعشى، الديوان، 130-131.

بقع البثور، وحين تسير فلا تسرع وإنما تمشي شبه من برجله ألم وهو يخوض في وحل، وربما اكتناز اللحم عليها، وحين تتصرف تسمع أصوات الحي منبعثة في طرب وإمتاع، وهي ذات نعمة لديها من يكفيها العمل ويقوم على خدمتها فإذا ما انتوت زيارة جاراتها تشددت وتحملت ولولا ذلك لغلبيها الكسل، لأنها تؤثر الراحة وتفضل السكون وهي مع ذلك رشيقة فخصرها نحيل دقيق، وأردافها كبيرة بارزة مع ضخامة وعظم، لو حاولت أن تعمل شيئاً في رفقٍ ودعه يكاد خصرها ينقطع".¹

وذكر الأعشى اسم محبوبته وأشار إلى صفاتها وما فيها من جمال يجذب إليها. ومن الشعراء من تغزل بمحبوبته وبين حزنه وأرقه لها ثم أدخل لواعج الحب بفخره وحربه ووصفه لشجاعته، ومن هؤلاء عنتر بن شداد، فعيلة رافقت عنتر في شعره الغزلي وفخره وحماسه وذكر حروبه، فإنما هو يفتخر ويغامر من أجلها، فهو يسعى لإرضائها بوصف شجاعته، وسخائه وعفته وذكر معاركه ومشاهده حتى إذا قرن اسمها باسمه تستطيع أن ترفع رأسها به² يقول:³

أَثْنِي عَلَيَّ بِمَا عَلَّمْتَ فَإِنِّي	سَمَحَ مُخَالِطَتِي إِذَا لَمْ أَظْلَمِ
وَإِذَا ظَلَمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِي بَاسِلٌ	مُرٌّ مَذَاقُهُ كَطْعَمِ الْعَلَقَمِ
هَلَّا سَأَلْتُ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ	إِنْ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي

ويبدو الذوق الجمالي في وصفه مقبلها حيث يقول:⁴

إِذْ تَسْتَبِيكَ بِذِي غُرُوبٍ وَاضِحٍ	عَذْبُ مُقْبَلُهُ لَذِيذُ الْمَطْعَمِ
--	---------------------------------------

ثم يصف عيني عبلة وابتسامتها العبة، وعفافها اللذيذ، ثم يشبه ابتسامتها بالروضة⁵، فهو يصفها وصفاً حسيّاً، فقد وصف طعمها وما يفوح من طيبها وغيرها من الصفات. وهذه الأوصاف في مجملها أوصاف حسية في المرأة تعكس السمات الجمالية التي ارتضاها الشعراء في المرأة.

¹ - عجلان، عناصر الابداع في شعر الأعشى، ص 90-91.

² - البستاني، الشعر الجاهلي، ص 82-83.

³ - عنتر: الديوان، ص 19.

⁴ - عنتر: الديوان، ص 15.

⁵ - أبوسويلم، أنور، دراسات في الشعر الجاهلي، دار الجيل، بيروت، ودار عمار الأردن، ط1، 1987. ص 17-18.

3.3 أوصاف معنوية:

اهتم الشعر بوصف مفاتن المرأة ومواطن الإغراء فيها، ولكن ذلك لم يصرف بعض الشعراء عن ذكر دور المرأة ووصفها بصفات معنوية، ومن ذلك ما جاء في ذكر المرأة التي تقف بجانب قومها في ميدان المعركة، إذ كانت كثير من القبائل تعتمد إلى اصطحاب نسائها في الحروب، لما لهن من دور كبير، فضلاً عن الخدمات الكثيرة التي كانت تقدمها المرأة لقومها، فهي رمز القوة المعنوية يستلهمها القوم في ساعات الشدة والضعف، ويستمدون عزماً من رؤيتها إلى جانبهم فتثور فيهم الحماسة والشجاعة، وتلك هي الحقيقة التي سجلها عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته¹ فقال: ²

عَلَى آثَارِنَا بِيضُ حِسَانٍ	نَحَازِرُ أَنْ تُقَسَّمَ أَوْ تَهْوَنَا
أَخَذْنَ عَلَى بُعُولَتِهِنَّ عَهْدًا	إِذَا لَاقَوْا كَتَائِبَ مُعَلِّمِنَا
لَيْسَتْ لِبْنٍ أَفْرَاسًا وَبَيْضًا	وَأَسْرَى فِي الْحَدِيدِ مُقَرَّبِينَ
تَرَانَا بَارِزِينَ وَكُلُّ حَيٍّ	قَدْ اتَّخَذُوا مَخَافَتَنَا قَرِينًا
إِذَا مَا رُحْنٌ يَمْشِيْنَ الْهُوَيْنَا	كَمَا اضْطَرَبَتْ مُتُونُ الشَّارِبِينَا
يَقْتَنُ جِيَادَنَا وَيَقْلُنَ لَسْتُمْ	بُعُولَتَنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا

اختلفت صورة المرأة اختلافاً واضحاً عند عمرو بن كلثوم فلم تعد مجرد متاع ولهو ووصف، لكنها أصبحت مساعدة للرجل تحفزه وتسير على خطاه.

وهي تواكب الفرسان إلى ساحة الوغى ممتطية ناقتها فتؤنسهم بحضورها الفتان وتغمر نفوسهم بنشوة الجمال والحب وتثير نخوتهم إلى القرع والغلاب، فتوعده إياهم بالتمنع عنهم وضجرهم إذا لم يمنعوها ويحموها.³

والشعر حافل بتصوير الحماسة التي كانت تتمشى في نفوس الرجال من الطعائن، وحافل بالفخر بحمايتهم من السبي.⁴

¹ - القبيلة في الشعر الجاهلي، ص 314.

² - عمرو بن كلثوم: الديوان، ص 86-87.

³ - السيوفي، المرأة في الأدب الجاهلي، ص 22-23.

⁴ - الحوفي، أحمد مخدم، المرأة في الشعر الجاهلي، دار النهضة مصر للطباعة، القاهرة، ص 455.

أما عن حياء المرأة فهو وثيق الصلة بعفتها، بل إن الحياء يتناول ما لا تتناوله العفة، فهو أعم منها، فقد تكون المرأة عفيفة، لكنها تبدي محاسنها للرجال، وتبسم لهم، ولكن المرأة الحية لا تفعل ذلك، وحياء المرأة من مكملاتها في نظر الرجل، لأنه دليل على عفتها ومنعتها وأئوبتها، وقد أعجب به العرب لأن أخلاقهم قائمة على الغيرة والعفة والإشارة بالمرأة المستكملة لصفات الأنوثة، ومن حيائها أن لا تسقط أخبار جيرانها ولا تتجسس على دخالهم¹، وقد قال في ذلك الأعشى:²

ليست كمن يكره الجيران طلعها ولا تراها لسرّ الجار تختل

لقد ذكر الأعشى صفة من صفات المرأة المعنوية، فالشعراء لم يهتموا بالصفات الجسدية فقط، فالأعشى أغرق في وصف المرأة حسيّاً لكن ذلك لم يمنعه من وصف صفاتها المعنوية.

ومن الشعراء من ينظر إلى المرأة على أنها الحياة بكل ما فيها، فهو يصبو إليها كما يصبو للحياة³، وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص:⁴

تَصْبُو وَأَنْى لَكَ التَّصَابِي أَنى وَقَدْ رَاعَكَ الْمَشِيبُ

وهذا البيت يبين أهمية المرأة (معنويّاً وجسديّاً) فالشاعر جعلها كالحياء.

4.3 المرأة لباسها وزينتها:

اهتمت المرأة الجاهلية بمظهرها وبكل ما يزينها من لباس وحلي وطيب ووشم وغير ذلك مما عرفته من طرق التجميل، فهي تريد أن تكون دائماً الأجل ولذلك نرى أنواعاً مختلفة من الألبسة التي تلبسها المرأة في الشعر، ومن ذلك البرد وهو ثوب موشى، والمجدد وثوب مصبوغ بالجساد وهو الزعفران⁵، وفي ذلك يقول طرفة بن العبد منبهاً إلى جمال لباس القينة:⁶

نَدَامَايَ بِيضُ كَالنُّجُومِ وَقَيْنَةٌ تَرُوحُ عَلَيْنَا بَيْنَ بُرْدٍ وَمُجَسَّدٍ

¹ - الحوفي، أحمد محمد، الغزل في العصر الجاهلي، دار القلم، بيروت، ص 84.

² - الأعشى: الديوان، ص 131.

³ - يوسف، أنظر عالم المرأة، ص 61.

⁴ - الأبرص: الديوان، ص 24.

⁵ - الحوفي، الغزل في الشعر الجاهلي، ص 121.

⁶ - طرفة: الديوان، ص 32.

رَحِيبٌ قِطَابُ الْجَيْبِ مِنْهَا رَقِيقَةٌ بِجَسِّ النُّدَامَى بَضَّةُ الْمُتَجَرِّدِ

والبرد من الملابس التي تبرز مفاتن الجسم.¹

وذكر من أنواع الملابس الدرع (الوشاح من اللباس المرصع بالجواهر)

صِفْرُ الْوَشَاحِ، وملء الدرع بهكئة إذا تأتي يكادُ الحضرُ ينخزلُ²

المرط أو الربط وهو من الملابس التي تصنع من الصوف أو الخز وهو

طويل ينجر على الأرض³، يقول في ذلك امرؤ القيس:⁴

خَرَجْتُ بِهَا تَمْشِي تَجُرُّ وَرَاءَنَا عَلَى أَثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحِّلٍ

ويتحدث الشعراء الجاهليون كثيراً عن لباس النساء المترفات أو ممن هن من

الطبقة المترفة، إذا اختصت المرأة المنعمة بملابس خاصة ومادتها الأولية التي كانت

تصنع منها هي الحرير وأشكالها وأنواعه المختلفة والدمقس المفتل.⁵

وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَى مَطِيَّيَ فَيَا عَجَباً مِنْ كُورِهَا الْمُتَحَمِّلِ

فَظَلَّ الْعَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا وَشَحْمِ كَهْدَابِ الدَّمَقْسِ الْمُفْتَلِ⁶

5.3 الحلّي:

اهتمت المرأة في العصر الجاهلي بالحلي الذي تزين بها رأسها وعنقها ويديها

وحتى القدمين، وهي تبرز في هذه الحلي جمالها وترفها وزينتها.

فحلي المرأة من أخص خصائصها في كل عصر، تضيف به إلى جمالها

جمالاً وتزهى به وتفاخر، وتفتن ألباب الرجال، وقلما تبدو المرأة عاطلاً من الحلي،

وإن قيل لها إنها غنيت بجمالها عن حليها.⁷

1 - المبيضين، مظاهر الحضارة المادية في الشعر، ص 33.

2 - الأعشى، الديوان، 131.

3 - الحوفي، الغزل في الشعر الجاهلي، ص 120.

4 - امرؤ القيس: الديوان، ص 14.

5 - المبيضين، مظاهر الحضارة المادية، ص 51.

6 - امرؤ القيس: الديوان، ص 11.

7 - الحوفي، الغزل في العصر الجاهلي، ص 131.

والشعر الجاهلي غني بذكر حلي المرأة التي تبدو به فاتنة، فمنها اللؤلؤ والزبرجد والخلخال وغيره، (فالمرأة تخرج بأبهى حللها وكامل زينتها).¹

ومن أنواع الحلي: الجزع وهو من الخرز اليماني، وفيه بياض وسواد تُشبه الأعين واحده جزعه²، يقول امرؤ القيس:³

فَأَذْبَرْنَ كَالْجَزْعِ الْمُفْصَّلِ بَيْنَهُ
بَجِيدٍ مُعَمٍّ فِي الْعَشِيرَةِ مُخَوِّلٍ

ومن الحلي القلادة وقد حظيت بجانب وافر من الشعر الجاهلي وتصنع من الفضة والذهب والأحجار الكريمة، والزبرجد واللؤلؤ، وترد لفظة العقد بمعنى القلادة⁴، وفي ذلك يقول طرفة بن العبد:⁵

وَفِي الْحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ الْمَرْدَ شَادِنٌ
مُظَاهِرُ سِمْطِي لَوْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ

فالسّمط هو الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ والزبرجد ويصبح بذلك قلادة.

والخلخال من أبرز أنواع الحلي الذي ورد ذكره في الشعر العربي، وهو من الحلي التي تحمل به المرأة ساقها ويكون من ذهب أو فضة يسمع له صوت إذا مشت وهذا الصوت له أثره في قلب الرجل. وقد جاء الحديث في الشعر الجاهلي عن الخخال في معرض حديثهم عن مفاتن المرأة الممتلئة الساقين التي لا يتحرك خلخالها⁶، ومن صور ذلك في قول عمرو بن كلثوم في وصف ساقى محبوبته فيصفهما بالبياض والامتلاء⁷:

وَسَارِيَّتِي بَلَنْطٍ أَوْ رُخَامٍ
يَرِنُ خَشَاشٌ حَلِيهِمَا رَيْنًا⁸

لقد بين مع جمال ساقها جمال زينتها وحليها، فعندما تمشي تسمع لحيلها صوتاً كالموسيقى.

¹ - عبدالرحمن، نصرت، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، مكتبة الأقصى، الأردن، ط2،

1982، ص 131.

² - ابن منظور، لسان العرب مادة (جزع)

³ - امرؤ القيس: الديوان، ص 22

⁴ - المبيضين، مظاهر الحضارة المادية، ص 67.

⁵ - طرفة بن العبد، الديوان، ص 26.

⁶ - المبيضين، مظاهر الحضارة المادية، ص 61.

⁷ - مرتاض، السبع المعلقة، ص 284.

⁸ - عمرو بن كلثوم: الديوان، ص 69.

وممن ذكر صوت حلي صاحبتة أو محبوبته الأعشى، حيث يقول في ذلك: ¹
تَسْمَعُ لِلْحَلِيِّ وَسَوَاساً إِذَا انصَرَفَتْ كَمَا اسْتَعَانَ بِرِيحٍ عِشْرَقٍ زَجَلٍ
ويصف الأعشى حلي محبوبته الذي تسمع له صوتاً أثناء سيرها كخشخشة
نبات العشرق، قد أنت عليه هز ريح. ²
وأشار طرفة بن العبد إلى البرين والدماليج من أنواع الحلي فقال: ³
كَأَنَّ الْبُرَيْنَ وَالْدَّمَالِيَجَ عُلِّقَتْ عَلَى عُشْرٍ أَوْ خِرْوَعٍ لَمْ يُخْضَدِ
والبرين هو الخلخال في ساق المرأة، والدماليج هي الإسوارة في العضد، هذه
بعض أنواع حلي المرأة التي جاء ذكرها في شعر المعلقات، وهناك أصناف متعددة
ومختلفة من الحلي ظهرت بالشعر الجاهلي عامة ⁴، وقد كشفت هذه الأنواع عن قيم
الذوق الجمالي للمرأة في ذلك العصر.

6.3 الطيب:

اعتنت المرأة في الجاهلية بالطيب أي العطور وأغرمت بها، واختارت منها ما
يتناسب وجمالها ورقتها وترفها، وقد التفت الشعراء إلى المرأة التي اعتنت بنفسها
واستعملت أنواعاً متعددة من الدهون والعطور، كما أعجبوا بالنساء اللواتي تزيّن
بالحلي وتعطرن بأجمل أنواع العطور والرائحة التي تفوح منه أجسادهن وثيابهن. ⁵
وقد تضمن شعر المعلقات وصفاً وتعددً لأنواع العطور التي استعملتها المرأة
الجاهلية، حيث تحدث الشعراء عنها حديث المعجب والمفتون، ومن هذه الأنواع:

1.6.3 المسك:

يعد من أبرز أنواع الطيب الذي ظهر في الشعر الجاهلي، وأكثر الأصناف
ترددًا في أفواه الشعراء، ومن ذلك قول امرئ القيس:

¹ - الأعشى، الديوان، ص 131.

² - عبدالعزيز، حسني، حماد، صراع الانسان ضد وحش الصحراء عند أصحاب المعلقات، ص 412.

³ - طرفة، الديوان، ص 34.

⁴ - طبانه، معلقات العرب، ص 216.

⁵ - المبيضين، مظاهر من الحضارة المادية في الشعر الجاهلي، ص 72.

إِذْ التَقْتَ نَحْوِي تَضَوَّعَ رِيحُهَا نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بِرِيًّا الْقَرْنُفُلُ¹
وَتُضْحِي فَتَبْتَ الْمِسْكَ فَوْقَ فِرَاشِهَا نَنُومُ الضَّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ
فالمرأة حريصة على تطيب نفسها وفراشها أيضا.

والمسك دهن يتخذ من نوع من الغزلان، يقطن في مناطق عدة كجبال الهند الشمالية ووسط آسيا، وللمسك شهرة وقيمة عند العرب لأنه هو العنبر قوي الرائحة، وأهل الشرق أميل إلى استعمال العطور القوية لأنها هي التي تلائم الجو الحار، والرجال يحبون رائحة المسك في المرأة، ويمدحونها بأنها ممسكة، لأن هذا دليل النظافة والتجمل والثراء²، ويظهر أن المرأة المترفة هي التي كانت تتطيب بالمسك، ولذلك أكثر الشعراء من وصفها.³

وقد أشار عنتره إلى المسك والوعاء الذي يحفظ به.⁴
وَكَاَنَّ فَارَةَ تَاجِرٍ بِقَسِيمَةٍ سَبَقَتْ عَوَارِضَهَا إِلَيْكَ مِنَ الْفَمِ
وكان المسك من أكثر أنواع العطور التي يعرفها القوم، وكانوا يحرصون على اجتلابه أثناء رحلاتهم التجارية.⁵

2.6.3 الزنبق

وهو دهن الياسمين، له لون أصفر حسن الرائحة، وكانت المرأة تتطيب به كما تتطيب بالمسك وقد تجمعهما معاً، يقول الأعشى في ذلك:⁶
إِذَا تَقَوْمٌ يَضُوعُ الْمِسْكَ أُصُورَةً وَالزَّنْبَقُ الْوَرْدُ مِنْ أَرْدَانِهَا شَمْلُ
فقد اهتم الأعشى برائحة المرأة، فإذا سارت تضيع العطر حيث تحل ويفوح المسك في كل مكان تنزل به⁷، واختار الروضة لأنها من الأماكن المرتفعة أكثر نشرًا وطيباً، وتلك الروضة ليست أطيب من رائحة محبوبته.⁸

¹ - امرؤ القيس: الديوان، ص 15.

² - الحوفي، الغزل في العصر الجاهلي، ص 134.

³ - المبيضين، مظاهر من الحضارة المادي في العصر الجاهلي، ص 7-8.

⁴ - عنتره: الديوان، ص 16.

⁵ - العمري، السمات الحضارية في شعر الأعشى، ص 336.

⁶ - الأعشى: الديوان، ص 131.

⁷ - عجلان، عناصر الإبداع في شعر الأعشى، ص 90.

⁸ - عبدالعزيز، صراع الإنسان ضد وحش الصحراء، ص 412.

7.3 الوشم

يعد الوشم من مظاهر الزينة عند الجاهلي، فقد كانت تضعه المرأة من باب الزينة على ذقنها ورجلها ويديها، وهو من أنواع الزينة التي لا تزال، وجاء ذكره في الحديث عن الأطلال التي لا تزول يقول في ذلك طرفة بن العبد: ¹

لِخَوْلَةٍ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةٍ تَهْمَدُ تَلُوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ
ويقول زهير بن أبي سلمى: ²

أُمُّنْ أُمُّ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةِ الدُّرَّاجِ فَالْمُتَتَلِّمِ
وَدَارٌ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا مَرَّاجِيْعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ
والوشم هو: غرز بالإبر في الجلد ثم يذر عليه الكحل أو النؤور³، فيبقى ظاهراً، وهذا السواد الذي نتج عنه هو الزينة، ويصف لبيد المرأة التي تتزين بالوشم بقوله: ⁴

أَوْ رَجُعٍ وَاشِمَةٍ أُسِفَ نَوُورُهَا كِفَفًا تَعَرَّضَ فَوْقَ هُنَّ وَشَامُهَا
فالواشمة هي التي تشم يدها، وتضرب بها الإبره وتحشوها نؤوراً والنؤور حصة إثم تدق لتصير مثل الكحل.⁵

8.3 مراكب النساء وخدورها:

فرضت طبيعة البيئة الصحراوية التنقل بحثاً عن الكأ والماء، وفي هذا الرحيل كانت المرأة تنتقل مع باقي نساء القبيلة، وكان لها مركب خاص هو الهودج تنتقل به على ظهر الناقة من مكان إلى آخر، وكان هذا الهودج يزين بأصناف مختلفة من الكلل والأقمشة توضع عليه الزينة، وتغطية المرأة، وقد ذكر هذا الهودج في كثير من الأشعار الجاهلية، ومن ذلك وصف زهير موكب النساء فوق الهودج: ⁶

عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَكِلَّةٍ وَرَادٍ حَوَاشِيَهَا مُشَاكِهَةُ الدَّمِ

¹ - طرفة، الديوان، ص 35

² - زهير، الديوان، ص 102.

³ - الشيباني، شرح المعلقات، ص 83.

⁴ - لبيد، الديوان، ص 299.

⁵ - الشيباني، شرح المعلقات، ص 156.

⁶ - زهير، الديوان، ص. 104-105.

ظَهَرْنَ مِنَ السُّوبَانِ ثُمَّ جَزَعْنَهُ
وَوَرَّكْنَ فِي السُّوبَانِ يَعْطُونَ مَتْنَهُ
كَأَنَّ فُتَاتَ الْعَهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ
عَلَى كُلِّ قَيْنِيٍّ قَشِيبٌ وَمُقَامٌ
عَلَيْهِنَّ دَلُّ النَّاعِمِ الْمُتَنَعِمِ
نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَاءِ لَمْ يُحْطَمِ

وكثيراً ما استرعت فرس الحدوج أي (الهودج) وأعطيتها أنظار الشعراء، وقلوبهم وأجمعوا على أن غطاء الهودج أحمر، ويظهر أنه كان أحب الألوان إلى العرب وهو منقوش طولاً وعرضاً، ومن علامات ترف المرأة وغناها أن يكثر غطاء الهودج وأستاره.

توضع علا الهودج الأنماط وهي ما يطرح على الهودج من ثوب ونحوه، والكلل ما يوضع فوق الهودج أيضاً، وكذلك فتات العهن وهو الصوف المصبوغ الذي يعلق على الهودج لزينة¹، وقد وصف نصرت عبدالرحمن موكب المرأة وهي في الهودج كأنه موكب عرس.²

ومن صور الهودج التي وردت في شعر المعلقات ما جاء في قول لبيد:³
شَاقَتْكَ ظُغْنُ الْحَيِّ حِينَ تَحْمَلُوا فَتَكَنَّسُوا قُطْنًا تَصِرُ خِيَامَهَا
مِنْ كُلِّ مَحْفُوفٍ يُظِلُّ عَصِيَّةً زَوْجٌ عَلَيْهِ كِلَّةٌ وَقِرَامُهَا
فظعن النساء في الهودج المحفوف، أي الذي حف بالثياب والكلل وهي الستائر الرقيق وقرام وهو ما يعطي به وكأنه يقصد به تغطية الهودج.⁴

وهذا الهودج الذي يغط بالأستار يبين مدى اهتمام الجاهلي وحرصه على المرأة وعدم رؤيتها فيخفي هودجها بالأستار، ومما يدل على ذلك أن امرأ القيس أراد الدخول إلى خدر عنيزة أي هودجها، لأن هذا المكان لا يجوز دخوله من قبل الرجال، وفي ذلك يقول الشاعر:⁵

وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخَدْرَ خَدْرَ عُنَيْزَةٍ فَقَالَتُ لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي

هذه بعض الصور لمراكب النساء وما يكون بها من الزينة والكلل والأستار.

¹ - الشيباني، شرح المعلقات، ص 127.

² - عبدالرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ص 131.

³ - لبيد، الديوان، ص 300.

⁴ - الشيباني، شرح المعلقات، ص 158.

⁵ - امرؤ القيس، الديوان، ص 11.

9.3 المرأة القينة

القينة هي الأمة المغنية، من التقين وهو التزين، وقيل للمرأة مغنية إذا كانت تزين النساء، شبهت بالأمة، لأنها تصلح البيت وتزينه، وقيل القينة الأمة مغنية أو غير مغنية، والقينة الجارية التي تخدم والأمة غنت أو لم تغن.¹

والأغلب أن القينة غير عربية، لأن العربية مكفولة الرزق من قبل زوجها وإما كاسبة رزقها بأعمال غير الغناء، وما من شك في أن الغناء يقتضي من المرأة المغنية أن تتزين للسامعين، وأن تبرز مفاتها وأن تكون محط أنظارهم ومجمع أشتاتهم كما يتحدث الشعراء.²

لقد اختلفت المرأة القينة عن الحرائر في العصر الجاهلي، فلم تكن لها كرامتها مثل الحرة، وكذلك أولادها فيعانون في الحصول على النسب مثل عنتر بن شداد، وقد عبر الشعراء عن القيان في اشعارهم ومايتصفن من حركات ولباس وحب للشرب.

وكثيراً ما احتفى الشعراء بجمال قيانهم، فوصفوا محاسن أجسادهن ورحابة أصواتهن ولباقة حركاتهن وفي ذلك يقول طرفة بن العبد:³

نَدَامَايَ بِيضٌ كَالنُّجُومِ وَقَيْنَةٌ	تَرُوحُ عَلَيْنَا بَيْنَ بُرْدٍ وَمُجَسَّدٍ
رَحِيبٌ قِطَابُ الْجَيْبِ مِنْهَا رَقِيقَةٌ	بِجَسِّ النُّدَامَى بَضَّةٌ الْمُتَجَرِّدِ
إِذَا نَحْنُ قُلْنَا أَسْمِعِينَا أَنْبَرْتَ لَنَا	عَلَى رِسْلِهَا مَطْرُوقَةٌ لَمْ تَشَدِّدِ
إِذَا رَجَعْتَ فِي صَوْتِهَا خِلْتَ صَوْتَهَا	تَجَاوِبَ أَظَارٍ عَلَى رُبْعٍ رَدِدِ

"يقول طرفة أن قينتهم تسمعهم الغناء وهي لابسة ثوباً مزعزراً واسع الصدر، وإنها حاذقة تلبي رغبات السامعين والنشأوى، وهي بضة الجسد، تغني في غير تكلف أو إجهاد، لأنها مطبوعة ماهرة يزيد بها جمالاً تفتّر عينها وتكسر نظراتها، وإن صوتها الحلو مطرب فيه حنين وشجا"⁴

¹ - ابن منظور، لسان العرب مادة قين.

² - الحوفي، المرأة في العصر الجاهلي، ص 564.

³ - طرفة بن العبد، الديوان، ص 32.

⁴ - الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص 574.

ويعلق بدوي طبانه على هذه الأبيات بقوله: "وفيها إشارة إلى الجواري المغنيات، ووصف لبعض أحوالهن في مجالس الشراب يمتعن الشرب بألحانهن ومعابثتهن، يذكر طرفة ان ندماءه على الشرب بيض الوجوه أطهار الأعراض، أنسابهم خالصة، صافية من كدر الرق، وأن القينة الجارية المغنية، تردد بينهم وقد سترت جسدها ومُجسّد، والمجسد هو الثوب المصبوغ بالزعفران، والمجسد أيضاً هو الثوب الذي يلي الجسد، وهو الشعار، وهو واسع الجيب، وهو المحل الذي يخرج منه الرأس، وإذا كان الجيب واسعاً بان العنق، وأنكشف معه شيء من الصدر، فالندامي يرون عنقها وبعض صدرها، وإذا مسها أحد من الندامي لم تمتنع عنه، فهي مواتية، وإذا مسّت واحداً منهم لم تزعه بمسها وهي ناعمة الجسم، وقال بعضهم: إن مس الندامي هو ما طلبوا من غنائها ويقول طرفة: إن هذه الجارية حاذقة عارفة بما يطرب له الندمان من الغناء، فهي تغنيهم به، على رسلها تؤده، وبصوت فيه لين وفتور، لم تتشدد فيه ولم ترفقه بقوة فتزعج السامعين إذا رددت صوتها في حلقها وترنمت فيه حلتها نوقاً فقدن أولادهن فهمن يبكين عليهم، أو نساء قمن في مأتم يكن على هالك يريد أنها قادرة على تصريف صوتها".¹

ومن وصف حركة القينة في مجلس الشراب يقول طرفة:²
 فَذَالَتْ كَمَا ذَالَتْ وَلَيْدَةُ مَجْلِسٍ تُرِي رَبَّهَا أَذْيَالَ سَحْلٍ مُمَدَّدٍ
 وفيه ما تصطنع الجارية من الفتنة لسيدها فقد شبهها طرفة وهي تتبختر بجارية عرضت هي على أهل مجلس، فقامت تتبختر وترخي أذيالها، لترى سيدها أذيالها البيض لأن سيدها إذا كان في المجلس كانت أشد مبالغة في التبخر وسحب الأذيال، لتسر فؤاده وتستدعي رضاه.³

تعددت النماذج في الشعر العربي بذكر القيان والجواري، وممن ذكرها في مجالس الشراب وقيامها بالخدمة قول عمرو بن كلثوم:⁴

صَبْنَتْ الْكَاسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو وَكَانَ الْكَاسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا

¹ - طبانه، معلقات العرب، ص 216.

² - طرفة: الديوان، ص 32.

³ - طبانه، معلقات العرب، ص 216.

⁴ - عمرو بن كلثوم، الديوان، ص 65-66.

وَمَا شَرُّ الثَّلَاثَةِ أُمُّ عَمْرٍو بِصَاحِبِكَ الَّذِي لَا تَصْبَحِينَ
وقد يذكر اسم قينة بعينها ويولع بها مثل ذلك قول الأعشى:
ودّع هريرة إنَّ الركبَ مرتحلٌ وهل تطيقُ وداعاً أيُّها الرجلُ
فيقال أن هريرة قينة كانت لرجل من آل عمرو بن مرثد، أهداها إلى قيس
ابن حسان بن ثعلبة بن عمرو بن مرثد.¹

ويذكر الأعشى لباس بعض النساء في مجالس الخمر فيقول:
والساحبات ذبول المريط آونة والرافلات على أعجازها العجل
أي لاسبات ملابس طويلة، النساء اللاتي يرفلن ثيابهن أي يجرونها.²
تعددت صور المرأة في الشعر الجاهلي فذكروها زوجة مثل أم أوفي وحببية
مثل عبلة، وجارية وقينة، وابنة اخ مثل ابنة مصير عن طرفه، وذكروا صفاتها في
الشجاعة والمشاركة في الحرب بجانب الرجال.

وقد تميز امرؤ القيس بالحديث عن المرأة في شعره وخصوصاً في المعلقة
فقد ذكر لها صوراً متعددة وقد "يعرض لها في ثلاثة ألوان متذكراً ومتأملاً وماجناً،
وفي الأولى يأس على أيامه الخوالي معها، ويكون هذا الجانب جزءاً من مقدمته
الطللية والثانية مخلوقاً جميلاً رقيقاً يصفه ويستغرق في وصفه، والثالثة جعلها مناط
مغامراته، مغامرات قد يكون فيها ضائعاً، أو صانعاً وفيه يصور المرأة مثلاً أعلى
للجمال".³

وممن عرض للمرأة صورة المحب الدائم لها والشغف بها عنتره فقصته مع
ابنة عمه عبلة كانت وراء فروسيته ومحاولة إثبات قدرته الحربية ليكون اهلاً لها،
فالمرأة صورة جميلة يراها الفارس فيحميها، ويعمل جهده للحصول عليها ويتمثل له
مفهوم البطولة في نجاح موهبته.⁴

¹ - الشيباني، شرح المعلقات العشر للتبريزي، ص 35، والحوافي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص 563.

² - الشيباني، شرح المعلقات العشر، ص 311.

³ - مكي، امرؤ القيس حياته وشعره، ص 182.

⁴ - عبدالرحمن، الشعر وأيام العرب، ص 95.

ومن ذلك ما جاء في شعر عمرو بن كلثوم الذي رسم صورة للحبيبة التي يرتئها، وذلك في ثنايا الفخر، ما يؤكد ان شعراء الجاهلية كانوا يقدمون كفاءات لمحبتهم تدل على أنهم جديرون بالمحبة، وأهم تلك الكفاءات البطولة التي دفعت عمرو إلى إيراد غزله في ثنايا الفخر.¹

فعنتره وعمرو افتخرا وكأئما أرادا لهذا الفخر الوصول إلى قلب المحبوبة، فقد تكون ذات قدر مثل عبله فحاول عنتره الوصول إليها من خلال ذكره لبطولته وإنجازاته.

لقد صورت المرأة في الشعر العربي بكل ما هو جميل في الحياة من حولهم، فتغنوا بها ووصفوها في شعرهم ومن ذلك اتضحت تلك الأهمية بها، رغم ما كانت تعانيه من وأد وسبي وغيره وخصوصاً منزلة المرأة الحرة وصعوبة الوصول إليها بسهولة.

¹ - صديق، المعلقات السبع، ص 75.

الفصل الرابع

مظاهر القيم والمثل العليا

من المظاهر التي برزت بشكل واضح في شعر المعلقات القيم والمثل العليا التي تحلى بها العربي في العصر الجاهلي، وقد فرضت طبيعة الحياة الجاهلية آنذاك وجود قيم الشجاعة والكرم والفروسية وغيرها.

ولولا وجود هذه القيم واستحالت الحياة في هذه الصحراء الموحشة المقفرة، وقد فرضت الصحراء على العرب أخلاقاً خاصة، وألزمتهم بتقاليد لا يستطيعون عنها حولاً، ثم صار لهم على مر السنين جبلة وفطرة، صورت لهم عنواناً بين الناس، فجذب الأرض وحياة التحرك والاحتكاك وتلك الحروب بينهم التي كانت تجعل غالب الأمس مظلوم اليوم، أجبرتهم على الاعتراف بهذه القيم والمثل التي عملوا بها.¹

والحياة القبلية وما فيها من ولاء إلى الجماعة، جعلت الفرد يتأثر بأخلاقها ومثلها وعاداتها وتقاليدها، والتي كانت تمثل عند الجاهليين دستوراً قيماً ينظم حياتهم، وبمقدار تمسك الفرد بهذا الدستور يشعر بالقبول الاجتماعي من المجتمع، وعليه فقد كان الفرد في القبيلة مقيداً بسلوك لا يحيد عنه، فرغبته في الانتماء والتعايش الاجتماعي، يدفعه إلى الالتزام بمثل تلك المثل واليقين بها، وإن كلفه ذلك أن يضحي بأعز ما يملك، وهكذا فإن الإنسان بطبعه ميل إلى حب الظهور، والتفوق، لذا كان الالتزام بقيم القبيلة ومثلها، ميدان تنافسه وإعلاء شأنه وتحقيق وجوده، فضلاً عن تأصل بعض الأخلاق الفاضلة في نفوس بعضهم.²

وقد حفل الشعر العربي بتلك القيم فافتخر الشعراء ويتباهو بها، وأنكروا من لا يلتزم بها من أفراد القبيلة وعيروه بذلك، وقد تعدد تلك الفضائل التي يمكن دراستها وفقاً للآتي:

¹ - عبدالرحمن، الشعر وأيام العرب، ص314.

² - دراوشة، صلاح الدين أحمد، القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي من خلال ديوان المفضليات والاصمعيات، مكتبة الفجر، الأردن، ط2، 2001، ص 21.

1.4 الكرم:

من أعظم القيم الإنسانية وأشدّها أثراً ونفعاً في حياة الجاهليين، فقد جعلهم يتنازلون عن مالهم ومتاعهم وطعامهم، لمن يعرفون ولا يعرفون، ينفقون ذلك وهم بأمس الحاجة إليه، نفوسهم راضية بذلك، بل يُسَرُّون أيّما سرور لأنهم يعتبرون ذلك واجباً مقدساً يقومون بتأديته¹، ولازمة من لوزام حياتهم بكل ظروفها.

وقد كان يدفعهم إلى ذلك أنهم كانوا يحيون في بادية شحيحة بالزاد، وحياتهم ترحال وتجول، فكل واحد منهم معرض لأن ينفد زاده، فهو يقرى ضيفه اليوم لأنه سيضطر إلى أن يضاف في يوم، ثم هم يكرمون لنيل الإطراء والثناء، ولأنهم ذوو أريحية وحساسية، تسعد نفوسهم بمساعدة المحتاج وإطعام الطعام.²

فالكرم العربي مدعاة للشرف الرفيع والمكانة المرموقة، ومن أبرز ما رسّخ قيمة الكرم في نفوس العرب في ذلك العصر، موقفهم من المال المرتبط بعقيدتهم الأزلية التي لم يجدوا لها حلاً، وهي نظرتهم العميقة للفناء والموت، وأن النهاية غاية كل حي، لذا فقد أسرفوا في كرمهم، وأجزلوا في عطائهم.³

وقد كانوا يجودون بخير ما يملكون، ويطعمون الطعام لكل محتاج، ويقدمون لهم لحم الجزور، وفي ذلك يقول ليبيد بن ربيعة:⁴

وَجَزُورٍ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحَتْفِهَا	بِمَغَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُهَا
أَدْعُو بِهِنَّ لِعَاقِرٍ أَوْ مُطْفَلٍ	بُذِلَتْ لِحَبِيرَانِ الْجَمِيعِ لِحَامُهَا
فَالضَيْفُ وَالْجَارُ الْجَنِيبُ كَأَنَّمَا	هَبَطَا تَبَالَةً مُخَصَّبًا أَهْضَامُهَا

ومن وسائلهم في اجتلاب الضيف، اتقاد النار ليلاً لاستدلال الأضياف على منازلهم، فكانوا يوقدونها في الأماكن المرتفعة لتكون أشهر، وربما أوقدوها بالمندي الرطب وهو عطر ينسب إلى مندل وهي بلدة في بلاد الهند، مما يبخر به ليهتدي إليها العميان⁵، وفي ذلك دلالة واضحة على حرصهم على هذه الخصلة الحميدة.

¹ - دراوشة، القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي، ص 128.

² - الحوفي، الحياة العربية في الشعر الجاهلي، ص 236.

³ - دراوشة، القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي، ص 125.

⁴ - ليبيد، الديوان، ص 318.

⁵ - الألوسي، محمد شكري، بلوغ الادب في معرفة أحوال العرب، دار الكتب العلمية، ج 1، بيروت، 1980، ص 70.

ومن الوسائل في اجتلاب الضيف نباح الكلاب كي يسترشد الضال الى بيوتهم، وقد استدل على كرمهم من ألف كلابهم لوافديهم، وذلك أن كلب الكريم اعتاد على على مشاهدة الغرباء، وعلى النقيض من كلب البخيل لا عهد له بالغرباء، يغدون ببیت صاحبه، فيظل نباحه مستوحشاً.¹

وكان من مظاهر الكرم عندهم أنه إذا جاءهم ضيف فرحوا به وأعزوه، وبالغوا بالحفاوة به وتقديم أفضل ما يملكون له، واستقبله بالبشر وطلاقة الوجه.

ومما يدل على إيقاد النار في المكان المرتفع ليهتدي إليها البعيد، وفي ذلك يقول الحارث بن حنظلة:²

وَبَعَيْنَيْكَ أَوْقَدْتَ هُنْدُ النَّا رَ أَخِيرًا تُلْوِي بِهِا الْعَلْيَاءُ
أَوْقَدْتَهَا بَيْنَ الْعَقِيقِ فَشَخَصَيْ -نِ بَعُودٍ كَمَا يَلُوحُ الضِّيَاءُ
فَتَنَوَّرْتُ نَارَهَا مِنْ بَعِيدٍ بِخَزَازَى هَيْهَاتَ مِنْكَ الصَّلَاءُ

ومن صور الكرم عندهم أيضاً الاهتمام بالأرامل والسخاء عليهم، واحترام الجار وإكرامه، وفي ذلك يقول لبيد في معرض مدح قومه:³

وَهُمْ رَبِيعٌ لِلْمَجَاوِرِ فِيهِمْ وَالْمُرْمِلَاتِ إِذَا تَطَاوَلَ عَامُهَا
وأكثر ما كانت العرب تكرم في وقت الحاجة والجذب والقحط، وهنا يهيب الكريم لنجدة قومه بكل ما يملك من مال، ولا يستطيع الكريم التخلي عن قومه في ظروفهم الصعبة.

وقد أكثر الشعراء من الحديث عن الكريم ونفي البخل عن أنفسهم، ومن ذلك قول طرفة بن العبد:⁴

ولستُ بِحَلَالِ التَّلَاعِ مَخَافَةً وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدِ
ويقول طرفة أيضاً:⁵

كَرِيمٌ يُرَوِّي نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ سَتَعْلَمُ إِنْ مُتْنَا غَدًا أَيُّنَا الصَّدِي

¹ - دراوشة، القيم الانسانية في الشعر الجاهلي، ص 131.

² - الحارث بن حنظلة، الديوان، ص. 20-21،

³ - لبيد، الديوان، ص 320.

⁴ - طرفة بن العبد، الديوان، ص 32.

⁵ - طرفة، الديوان، ص 34.

أَرَى قَبْرَ نَحَّامٍ بَخِيلٍ بِمَالِهِ كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِي الْبَطَالَةِ مُفْسِدٍ
أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي عَقِيلَةَ مَالٍ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ

فطرفة بن العبد يعطي من شأن قيمة الكرم، ويرى أن الإنسان الكريم يجود بماله كحياته، والبخيل شخص منبوذ فاسد لا يستحق الحياة.

ويرى أحمد الحوفي إن لطرفة فلسفة في هذه الأبيات فيقول: "لبعضهم فلسفة عملية صائبة مبنية على بعد النظر والتجربة، فهم لا يرون مدعاة للبخل، لأنهم لن يموتوا جوعاً، ولأن المال الذي يخلفونه سيرثه غيرهم وقد يكون من الورثة عدو يتلفه ويتشوف ثم هم سيموتون وخيراً لهم أن يخلفوا ذكراً طيباً".¹

ومن صور الكرم كرم زعماء القبائل على الناس في وقت الجذب، وكرمهم على الناس لإحلال الصلح، فهم يدفعون أموالهم في سبيل كف القتل وقد أشار الى كرم سيد القبيلة لبيد بقوله:

فَضْلاً وَذُو كَرَمٍ يُعِينُ عَلَى النَّدَى سَمَحٌ كَسُوبُ رَغَائِبٍ غَنَامُهَا²
ومثال ذلك أيضاً يقول زهير بن أبي سلمى في هرم بن سنان والحاتر بن عوف اللذين تعهدا بدفع ديات القتلى من عبس وذبيان فقال:³

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ بِالْدَمِ
فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ رَجَالُ بَنُوهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجَرُّهُمْ
يَمِيناً لِنَعْمِ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمٍ
تَدَارَكْتُمَا عَبْساً وَذُبْيَانِ بَعْدَمَا تَقَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عَطَرَ مَنْشَمٍ
وَقَدْ قُلْتُمَا إِنَّ نُدْرِكَ السَّلْمَ وَأَسْعَا بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْقَوْلِ نَسْلَمِ
كَرَامٍ فَلَا ذُو الضُّغْنِ يُدْرِكُ تَبْلَهُ وَلَا الْجَارِمُ الْجَانِي عَلَيْهِمْ بِمُسْلَمِ

ويذم زهير البخيل الذي يملك المال ولا يجود به، يقول:⁴

ومن يك ذا فضلٍ فيبخلُ بفضله على قومه يُسْتَغْنَى عَنْهُ وَيُذَمُّ

¹ - الحوفي، الحياة العربية في الشعر الجاهلي، ص 246.

² - لبيد، الديوان، ص 321.

³ - زهير، الديوان، 105-106.

⁴ - زهير، الديوان، ص 110.

ومن مظاهر الكرم ما يبدو في حديث طرفة عن كرمه بوصف مشهد له مع النياق وقد حل ساحتها الضيفان، فحمل السيف ليذبح إحداها، ولكن شيخاً في الحي - لعله عمه - انحنى باللائمة على طرفة وحاول أن يثير عليه الناس، ولكنه تذكر أخلاقه وأنه لا ينثني أبداً عن عزمه في إكرام الضيف فتراجع عن تأليبه، وطلب من الناس أن يردوا ما شذ من الإبل إلى أخواتها وإلا جن جنون الفتى فعقرها جميعاً، لقد ذبح طرفة الناقة وأكل الجميع من أطيابها¹ وفي ذلك يقول:²

وَبَرَكَ هُجُودٌ قَدْ أَثَارَتْ مَخَافَتِي	بَوَادِيهَا أَمْشِي بِعَضْبٍ مُجَرَّدٍ
فَمَرَّتْ كَهَا ذَاتُ خَيْفٍ جُلَالَةٍ	عَقِيلَةٍ شَيْخٍ كَالْوَبِيلِ يَلْنَدُ
يَقُولُ وَقَدْ تَرَّ الْوُظَيْفُ وَسَاقُهَا	أَلَسْتُ تَرَى أَنْ قَدْ أَتَيْتَ بِمُؤَيِّدٍ؟
فَظَلَّ الْإِمَاءُ يَمْتَلِنُ حُورَهَا	وَيَسْعَى عَلَيْنَا بِالسَّدِيفِ الْمُسْرَهْدِ

فالكرم قيمة أخلاقية سامية مجدها الجاهلي إلى حد المبالغة، وراحت القبائل على السنة شعرائها تتباهى به، فقد مجد العربي هذا الخلق الكريم تمجيداً يجعل من هذا الخلق حاجة من حاجات الناس وضرورة اجتماعية، فرضتها الحياة العربية وحاجة الناس إلى ذلك.

فالكرم خلقٌ عربيٌّ متأصل في القدم ومستمرٌّ إلى يومنا هذا، فرغم أنه كان بسبب طبيعة الصحراء المجذبة، إلا أنه أصبح رغم المستجدات الحديثة سجية من سجايهم.

2.4 الشجاعة والفروسية:

تعد الشجاعة خصلة من أهم خصال العربي التي يفخر ويعتز بها، حيث يدافع بها عن نفسه وقبيلته، وهي مفخرة العربي وحيته بشجاعته، يلبسها وتلبسه سواء أكان غنياً أم فقيراً، ذا قبيل أو وحيداً، وذلك أن أهل البادية متفردون عن المجتمع، بعيدون عن الحامية يعيشون في العراء غير محتمين بأسوار أو جدران أو أبواب، فهم يقومون بالدفاع عن أنفسهم ولا يكلونه إلى سواهم، يحملون السلاح دائماً

¹ - العتوم، المعلقات العشر، ص 270.

² - طرفة، الديوان، ص 37.

ويتلفتون عن كل جانب، وإذ تقصينا حياة العربي منذ طفولته أدركنا أن الشجاعة ولدت معه وأنه شب وكبر تتمشى في دمه، وكيف لا وقد ربي في بيئة تتمح بالبطولة والإقدام وحسن البلاء في حماية الدمار والأخذ بالثأر، وبالعدوان في كثير من الأحيان، وطالما فزع طفلاً على قعقة السلاح وصيحات المقاتلين، وسمع الأفاصيص من شجعان القبيلة التي حموها، وردوا المغيرين عليها، أو هجموا على أخرى وأجلوها، ثم شب فرأى الرماح تشتبك، والسيوف تتقارع، والأبطال في ميدان الوغى تتنازع، ثم كبر فشارك في المواقع، وأفنى العمر في المعارك، فلا أعجب إن كانت الشجاعة خلقاً عاماً عند العرب.¹

ولعل الشجاعة من أبرز أخلاق العرب في العصر الجاهلي، وحرص على التمسك بها.

ولعل طبيعة الحياة العربية في الصحراء الموحشة فرضت أن يكون الإنسان فارساً مقدماً لا يهاب حتى الموت ليدافع عن نفسه وعرضه وماله وقبيلته. والفروسية من أبرز مظاهر البطولة الحربية، الذي تناوله شعر الفروسية، حيث فخر الفارس بقدرته على ركوب فرسه، وتصريف أمره، كراً وفراً وملاحقة وطرده، أو إظهاراً لتفوقه في ميادين السباق مع استخدام أنواع الأسلحة المختلفة دفاعية كانت أم هجومية، ومع التخلق بجميع الصفات البطولية التي تعلي من قدره، وترفع من شأنه عند المنافسة أو النزال أو المطاردة.²

وتغنى الشعراء بشجاعتهم وفروسياتهم، وكذلك شجاعة فرسان قبائلهم ففي ضوء الحياة القاسية التي عاشها هذا الإنسان في صحرائه الواسعة، كان لازماً عليه أن يظل يقظاً حاداً في معاملته مع الحياة العامة، يستطيع التفوق على غيره ويشبع شعوره بالعزة والقوة ويرضى بذلك نفسه أولاً وقومه ثانياً، ومع ذلك فإن هذا الشاعر الفارس يحافظ على هدوئه واتزانه ويحترم حرية غيره، ما لم يتناول غيره عليه، فإن ظلم رَدَّ بقوة وبأس شديدين، وفي ظل ذلك يظل متمتعاً بجل شمائله التي يعبر

¹ - الحوفي، الحياة العربية في الشعر الجاهلي، ص 254-255.

² - دراوشة، القيم الانسانية في الشعر الجاهلي، ص 166.

فيها عن كل إنسان كريم النفس كما هو الأمر عند عنتره بن شداد الذي يخاطب الناس من خلال مناجاة عبلة مبينا تلك الخصال.¹

أَثْنِي عَلَيَّ بِمَا عَلِمْتَ فَإِنِّي
وَإِذَا ظَلَمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِي بِأَسِئَلٍ
وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَمَا
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى
سَمَحٌ مُخَالَقَتِي إِذَا لَمْ أَظْلَمِ
مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كَطَعِ الْعَلَقَمِ
رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ
وَكَمَا عَلِمْتَ شِمَائِلِي وَتَكَرُّمِي²
فهو فارس شجاع كريم سمح في تعامله، يتحلى بأرق الأخلاق وأفضلها، وكأنه بذلك يحدد الخصال التي يجب أن يتسم بها الفارس.

ويفخر طرفه بن العبد بفروسيته وشجاعته ودفاعه عن عرضه إذ يقول:
وَإِنْ أَدْعَ لِلْجَلَى أَكُنْ مِنْ حُمَاتِهَا
وَيَقُولُ أَيْضًا:³

وَإِنْ يَقْذِفُوا بِالْقَذَعِ عَرَضَكَ أَسْقِهِمْ
إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى خِلْتُ أَنَّنِي
بِكَاسِ حِيَاضِ الْمَوْتِ قَبْلَ التَّهْدُدِ
عَنِيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ⁴
وهو على أتم استعداد إذا احتاجه القوم فيهب لنجدهم بشجاعة وبسالة.

وممن كثر في شعره الحديث عن الشجاعة وأفعاله مع قومه في ميادين القتال والوعى عمرو بن كلثوم، وكان حديثه من باب الفخر بتلك الشجاعة حيث يقول:⁵
نُطَاعِنْ مَا تَرَاحَى النَّاسُ عَنَّا
نَشُقُّ بِهَا رُؤُوسَ الْقَوْمِ شَقًّا
كَأَنَّ سَيُوفَنَا فِينَا وَفِيهِمْ
كَأَنَّ ثِيَابَنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ
وَنَضْرِبُ بِالسَّيُوفِ إِذَا غُشِينَا
وَنَخْتَلِبُ الرِّقَابَ فَتَخْتَلِينَا
مَخَارِيقُ بَأْيَدِي لَاعِبِينَا
خُضِبْنَ بِأَرْجُوانٍ أَوْ طَلِينَا
وَشَيْبُ فِي الْحُرُوبِ مُجَرَّبِينَا
بِفَتْيَانٍ يَرَوْنَ الْقَتْلَ مَجْدًا

¹ - بوبيو، جدلية القيم في الشعر الجاهلي، ص 62.

² - عنتره، الديوان، ص 19-20.

³ - طرفه، الديوان، ص 35.

⁴ - طرفه، الديوان، ص 31.

⁵ - عمرو بن كلثوم، الديوان، ص 76، 77.

فهو يفخر بما يمتلك من قوة وشجاعة يواجه بها أعداءه وأعداء قومه، ولا يستطيع الأعداء أن يقفوا أمامه في ساحة الوعى.

وفخر الحارث بن حلزة بشجاعة قومه وبالثهم في ساحة المعركة، فيقول:¹

هَلْ عَلِمْتُمْ أَيَّامَ يُنْتَهَبُ النَّا	سُ غَوَارًا لِكُلِّ حَيٍّ عَوَاءُ
إِذْ رَكَبْنَا الْجِمَالَ مِنْ سَعَفِ الْبَحْرِ	رَيْنَ سَيْرًا حَتَّى نَهَاها الْحِساءُ
لَا يُقِيمُ الْعَزِيزُ بِالْبَلَدِ السَّهْ	لِ وَلَا يَنْفَعُ الذَّلِيلَ النَّجَاءُ
أَيَّةَ شَارِقِ الشَّقِيقَةِ إِذْ جَا	وُوا جَمِيعًا لِكُلِّ حَيٍّ لَوَاءُ

ويشيد الأعشى بما يتمتع به قومه من فروسية وشجاعة، وقدرتهم على

المواجهة في ساحات المعارك، وما يملكونه من عدد الفرسان، حيث يقول:²

نحن الفوارسُ يومَ الحنو ضاحيةً	جنبى فطيمة لا ميلٌ ولا عزلٌ
قالوا الطرادُ فقلنا تلكَ عادتنا	أو تنزلونَ فإنَّا معشرٌ نزل

وكما للرجال دور في الشجاعة كان للنساء دورٌ كذلك، فالنساء يشاركن في

الحرب ويدخلن خضامها، لتشجيع الفرسان على القتال والمساعدة في الأمور، وقد

صور عمرو بن كلثوم شجاعة المرأة بقوله:³

عَلَى آثَارِنَا بِيضٌ حِسَانٌ	نُحَاذِرُ أَنْ تُقَسَّمَ أَوْ تَهْوَنَا
أَخَذْنَ عَلَى بُعُولَتِهِنَّ عَهْدًا	إِذَا لَاقُوا كَتَائِبَ مُعَلِّمِنَا
لَتَسْتَلْبُنَّ أَفْرَاسًا وَبَيْضًا	وَأَسْرَى فِي الْحَدِيدِ مُقَرَّبَيْنَا
يَقْتَنَ جِيَادَنَا وَيَقْلَنَ لَسْتُمْ	بُعُولَتَنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا

وفيما مضى صور من واقع الحياة العربية في العصر الجاهلي، تظهر ما

للشجاعة والفروسية من قيمة ومنزلة عند العرب آنذاك، وقد حرص شعراء المعلقة

على إبراز هذه الصورة بكل وضوح.

¹ - الحارث بن حلزة، الديوان، ص 27-28.

² الأعشى: الديوان، 134.

³ - عمرو بن كلثوم، الديوان، ص 86-87..

3.4 العفة:

ومن أبرز القيم التي عرفها الجاهلي العفة التي تعني الكف عما لا يحل، وتحمل في طياتها عفة عن المحارم عن الأطماع الدنيئة¹، ومن معانيها الصبر والنزاهة عن الشيء.

ولعل طبيعة المجتمع الجاهلي بعباداته وأعرافه وتقاليده فرضت عليهم هذا الخلق الشريف، وتطلب منهم أن يكونوا على قدر من من الأنفة والعزة والكبرياء، والبعد عن الإساءة والترفع عن الرذائل.

ولم تكن الخلاعة والمجون يتغاضون عنه، فامرؤ القيس طرده أبوه لخلاعه²، والعفة ترفع عن كل ما يسيء إلى المروءة أو يخدش الحياء أو الكرامة، وهي قيمة إنسانية طالما اعترى العربي بها.³

ومن باب العفة صيانة الشرف، والحفاظ عليه، فكرامة العربي في شرفه، فلا فائدة للقيم الأخرى دون المحافظة عليه، وقد أشار إلى هذا المعنى عمرو بن كلثوم في حديثه عن مشاركة النساء بالقتال، ولكنهم بالمقابل حافظوا عليهن من السبي يقول:⁴

إِذَا لَمْ نَحْمِهِنَّ فَلَا بَقِينَا لَشَيْءٍ بَعْدَهُنَّ وَلَا حِينَا
وَمَا مَنَعَ الظَّعَّائِنَ مِثْلُ ضَرْبٍ تَرَى مِنْهُ السَّوَادَ كَالْقُلَيْبِ

وقد افتخر الشعراء بعفتهم وعفة أقوامهم في أمور متعددة منها عفتهم عن أخذ ما يكسب من غنائم بعد الحرب، وفي ذلك يقول عنتر:⁵

يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنَّي أَغْشَى الْوَغَى وَأَعْفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ

فعنتره يفخر بارتياحه ميادين الوغى مترفعاً عن أخذ المغنم، فهو لا يحارب من أجلها، ولكنه يحارب شجاعةً وزياداً عن الحمى والجماعة.⁶

¹ - دراوشة، القيم الانسانية في الشعر الجاهلي، ص .

² - الحوفي، الحياة العربية في الشعر الجاهلي، ص 282.

³ - دراوشة، القيم الانسانية في الشعر الجاهلي، ص 106.

⁴ - عمرو بن كلثوم، الديوان، ص 87، 88.

⁵ - عنتره، الديوان، ص 21.

⁶ - طبانة، معلقات العرب، ص 273.

ومن صور العفة عفة اللسان والتنزه عن فحش القول وذم الآخرين وشتيمهم وهجائهم، والإعراض عن الغيبة والنميمة¹، وهذا أخلاق رفيعة لا يمكن الاستغناء عنها، وفي ذلك يقول عنتره:²

وَلَقَدْ خَشَيْتُ بَأْنَ أَمُوتَ وَلَمْ تَدُرْ لِلْحَرْبِ دَائِرَةً عَلَى ابْنِي ضَمُضَمِ
الشَّائِمِي عَرَضِي وَلَمْ أَشْتُمَهُمَا وَالنَّاذِرِينَ إِذْ لَمْ أَلْقَهُمَا دَمِي
ويبدو هذا المعنى في قول زهير بن أبي سلمى ينهى عن التعرض للناس بالشتم:³

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرِضِهِ يَفِرُّهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمُ
وتعد العفة من القيم الكبرى في الحياة العربية إلى جانب الكرم والشجاعة، وأهم مافيهما الحفاظ على الشرف والعرض، ولهذا حرص الشعراء على الحديث عنها مطولاً في أشعارهم، وكانت من الخصال التي يتباهى بها السادة والزعماء.

4.4 رفض الذل وإباء الضيم

العرب أمة أبية لا تضيم على الخسف، ولا ترضى بالهوان، فالأنفة عندها أعز من الحياة، والذل عليها أشق من الموت، وقد ضمنوها في مختلف شعرهم.⁴ ومن الأخلاق العربية التي أبرزها الشعر الجاهلي العزة وإباء الضيم الذي كان ثمرة من ثمرات الحرية التي عشقها العربي وأوضع لبانها في تلك البيئة الحرة، فقد كان سيد نفسه لا يرضى إلا بما تسنه قبيلته، ولا يخضع إلا لسلطاتها وفيما عدا ذلك تراه لا يعترف بسيادة ولا يقر بسلطان، إلا أن يقهر أو يغلب على أمره ولكن هيهات أن يستكن له.⁵

فقد كان العربي يعيش في بيئة مجدبة نادرة الزرع شحيحة، بالخير عامة، ولذلك استعاض عن هذا الفقر المادي بما هو خير وأنفع وأكثر إسعاداً وهو الإباء

¹ - دراوشة، القيم الانسانية في الشعر الجاهلي، ص 105.

² - عنتره، الديوان، ص 25.

³ - زهير، الديوان، ص 110.

⁴ - دراوشة، القيم الانسانية في الشعر الجاهلي، ص 101.

⁵ - طبانه، معلقات العرب، ص 232.

والحرية، فشقت عليه الطبيعة فحرمته كثيراً من الوسائل المادية الحسية التي تبرقه فيها المتحضرون، ولكنه استمتع بخيرها مما يستمتعون به، فعاش في الصحراء حراً ألباً كالأسد، قوي القلب كالصخر فبسط النفس كالبطحاء، صافي المشاعر كالشمس المشرقة والبدر الساحر¹، ولذلك رفض العربي الذل والمهانة والضميم، لأن نفسه عصية على ذلك كله.

كان الجاهلي شديد الرفض للذل والظلم، ويعتز بذلك ويفخر، وإذا ظلم فإنه يقتص لظلمهم خصمه مهما كلفه ذلك.

ومن صور الإباء ورفض الذل في الشعر الجاهلي "اشتهر فتك عمرو ابن كلثوم بعمر بن هند لأنه بغى وتملكه الزهو واستعلت أمه على ليلي أم عمرو ابن كلثوم، وأرادتها أن تقوم منها مقام الوصيفة، فصاحت: واذلاه! فسمعها عمرو ابن كلثوم فثار ووثب إلى سيف وضرب به رأس عمرو بن هند وكانت هذه سبب على نظم جزء من المعلقة² فيقول في رفضه للانصياع والذل:

أَلَا لَا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا	فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينََا
بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمَرُو بَنَ هِنْدٍ	نَكُونُ لِقَيْلُكُمُ فِيهَا قَطِينَا
بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمَرُو بَنَ هِنْدٍ	تُطِيعُ بَنَا الْوُشَاةِ وَتَزْدَرِينَا
تَهْدِدُنَا وَتُوَعِدُنَا رُوَيْدَا	مَتَى كُنَّا لَأُمِّكَ مَقْتُونِينَا
فَإِنَّ قَنَاتَنَا يَا عَمْرُو أَعْيَتْ	عَلَى الْأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا ³
وَنَحْنُ التَّارِكُونَ لِمَا سَخَطَنَا	وَنَحْنُ الْأَخِذُونَ لِمَا رَضِينَا
وَأَنَا الْمَانِعُونَ لِمَا أَرَدْنَا	وَأَنَا النَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا
وَأَنَا الْعَاصِمُونَ إِذَا أُطْعِمْنَا	وَأَنَا الْعَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا
إِذَا مَا الْمَلِكُ سَامَ النَّاسَ خَسَفَا	أَبِينَا أَنْ نُقَرَّ الذَّلَّ فِينَا ⁴

¹ - الحوفي، الحياة القبلية في الشعر الجاهلي، ص 274.

² - الحوفي، الحياة العربية في الشعر الجاهلي، ص 274.

³ - عمرو بن كلثوم، الديوان، ص 78-79.

⁴ - عمرو بن كلثوم، الديوان، ص 89-90.

ولشعور العربي بالعزة والإباء والحرية أخذ يفخر بنفسه لأنه لا يرضى بالذل والانصياع، فكما فرضت الطبيعة الصعبة القاسية تلك القيم فإنه حرص على العزة ورفض الذل، لأن قسوة العربي اكتسبها من قساوة البيئة التي نشأ فيها. وكان من آثار الشعور بالحرية والإباء أن ملأ العربي الصحراء فخراً بقوته وعدته، إنه يرضي كبريائه بهذا الفخر، وإنه يخيف أعداءه منه¹، وقد عبر عن هذا المشهد طرفة بن العبد حيث قال:²

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ	خَشَّاشٌ كَرَأْسِ الْحَيَّةِ الْمُتَوَقِّدِ
فَأَلَيْتُ لَا يَنْفَكُ كَشْحِي بِطَانَةٍ	لِعَضْبِ رَقِيقِ الشَّفَرَتَيْنِ مُهَنَّدِ
حُسَامٍ إِذَا مَا قُمْتُ مُنْتَصِرًا بِهِ	كَفَى الْعَوْدَ مِنْهُ الْبَدْءُ لَيْسَ بِمِعْضَدِ
أَخِي ثِقَةٍ لَا يَنْتَنِي عَنْ ضَرِيَّةٍ	إِذَا قِيلَ مَهْلًا قَالَ حَاجِزُهُ قَدِي
إِذَا ابْتَدَرَ الْقَوْمُ السَّلَاحَ وَجَدْتَنِي	مَنْبِعًا إِذَا بَلَّتْ بِقَائِمِهِ يَدِي

هذا الفخر نابع من شعور طرفة بعزته وبائه ولهذا أخذ يتحدث عن نفسه وعن شجاعته التي لا تقبل الضيم والهزيمة.

ومن صور الإباء ورفض الظلم أن لا يظلم الرجل غيره وقد تحلى سادة القبائل بهذه الصفة فكانوا يابون الظلم والوقوع فيه، وفي ذلك يقول لبيد:³

وَمَقْسَمٌ يُعْطِي الْعَشِيرَةَ حَقَّهَا وَمَغْذَمٌ لِحُقُوقِهَا هَضَامُهَا

فسيد القبيلة عندما يوزع الغنائم بعد الحرب أو أي شيء يدخل القبيلة فهو يقسمه بين جميع الأفراد دون أن يؤثر أحداً على الآخر، فهذه من أعز القيم التي نشأ عليها العربي وتربى من رفض الظلم، وهذه من شيم زعماء القبائل الذين يتحرون العدل ورفع الظلم عن الآخرين.

ويرفض العربي الظلم أن يقع وأن يُوقع فيه، ولكنه إذا ظلم فإنه يرد هذا الظلم بأشد منه، فالعربي صعب في طبعه مثلما ذكر سابقاً، يقول عنترة في ذلك:⁴

وَإِذَا ظُلِمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِي بِأَسِئْلٍ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كَطَعْمِ الْعَلَقَمِ

¹ - الحوفي، الحياة العربية في الشعر الجاهلي، ص 275.

² - طرفة، الديوان، ص 36-37.

³ - لبيد، الديوان، ص 319.

⁴ - عنترة، الديوان، ص 19.

ورد الظلم واجب حتى لو كان من ذوي القربى، وفي ذلك يقول طرفة ابن العبد:

وظلمُ ذوي القُربى أشدُّ مضاضَةً على المرءِ مِنْ وَقَعِ الحُسامُ المُهَنَّدُ¹

5.4 الوفاء

من أبرز القيم التي غرستها الطبيعة العربية الوفاء، فالعربي وفيٌّ لأهله وقبيلته ومن حوله ممن تجمعهم صلات و غيرها، فالوفاء خلق عربي أصيل يتصف به الكرماء وأصحاب الجاه، وكل من فهم قيمة هذا الخلق وأثره في الحياة. والبيئة البدوية كانت فيها كلمة ينطقها العربي هي (وعده) أي يجب أن يفي به، وإلا عرّض شرفه للتجريح، فكان الوفاء من أخلاق العرب.²

"والوفاء رديف الصدق، فإذا كان الصدق باللسان، فإن الوفاء باللسان والسلوك، لذلك كان لهذه القيمة الإنسانية عظيم الأثر في حياة العرب في جاهليتهم، لقد كان لها آثار إيجابية تعود بالنفع على الإنسان والمجتمع، فتعمل على توحيده وتجعله قوياً متماسكاً، تشيع بين أفراده المحبة والمودة، فقوة المجتمع لا تقتصر على قوة الساعد والسلاح، وإنما تعتمد على قدرته في تجاوز الرذائل، والتمسك بالقيم الإنسانية النبيلة، فإذا ما وجد ذلك في المجتمع ينتصر على نفسه من الداخل، فيكون مستعداً لمجابهة الأعداء والخصوم، أما إذا شاع الغدر والخيانة وتفتشت الكراهية والبغضاء بين أفرادهم، فإن ذلك من شأنه أن يقطع أواصر المودة والمحبة"³.

فالمجتمع الجاهلي بظروفه وطبيعة العلاقات التي تنظم شؤون أفرادهم وتحدد علاقات القبائل فيما بينها وبخاصة فيما يتعلق بالأحلاف وقانون الجوار، بحاجة إلى تمسك بهذا النوع من الفضائل، لأن الوفاء شيمة من شيم أصحاب المكانة ومن ينظم شؤون القبائل.

ويمكن القول إن قيمة الوفاء لهم يكن يتحلى بها كل إنسان، ومع ذلك فإن الغدر كان من الأخلاق المذمومة في ذلك المجتمع، والتي تجرد صاحبها من الكمال

¹ - طرفة، الديوان، ص 36.

² - الحوفي، الحياة العربية في العصر الجاهلي، ص 277.

³ - دراوشة، القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي، ص 195.

الإنساني الذي كانوا ينشدونه، لذا كان الغدر مذموماً بين الناس وغير مرحب به، وبالمقابل مجد العرب الأوفياء لأن الإنسان مفطور بحبه على تمجيد الخلق العربي، فإذا ما هجا شاعر أحداً نعتة بالغدر والخيانة، وإذا امتدح أحداً نعتة بالوفاء.

وقد تردد الوفاء في الشعر العربي كثيراً وخصوصاً في الحديث عن الجوار والأحلاف، وغيرها من الأمور التي تنتم ما بين القبائل، وهذا يتطلب الوفاء حتى تبقى القبائل بعيدة عن الشر والحرب، وقد أشار زهير إلى الأحلاف ووجوب الالتزام بها ومن لا يلتزم فله جزاؤه لأنه أقسم على ذلك، وجزاء من لم يوف بالهلف يقول زهير:¹

أَلَا أَبْلِغِ الْأَحْلَافَ عَنِّي رِسَالَةً	وَذُبِّيَّانَ هَلْ أَقْسَمْتُمْ كُلَّ مَقْسَمٍ
فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفُوسِكُمْ	لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللَّهُ يَعْلَمَ
يُؤَخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ	لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلُ فَيُنْقَمَ

والحليف له حقوق وعليه واجبات، لا يجوز فض الحلف أو الغدر بالحليف مادام الحلف معقوداً، ويحرص المجتمع الجاهلي على الحفاظ على قداسة الحلف ويعتبر المساس به عاراً ألصق بالقوم.²

ويتغنى عمرو بن كلثوم بالمحافظة على الحلف والوفاء باليمين الذي يقطع وجعل ذلك مدار فخر واعجاب، حيث يقول عمرو بن كلثوم:³

مَتَى نَعْقِدَ قَرِينَتَنَا بِحَبْلٍ	تَجْذُ الْحَبْلَ أَوْ نَقْصُ الْقَرِينَا
وَنُوجِدُ نَحْنُ أَمْنَعُهُمْ ذِمَّاراً	وَأَوْفَاهُمْ إِذَا عَقَدُوا يَمِينَنَا

وورد في الشعر وجوب الوفاء بالعهد والمحافظة عليه وعدم الجور والتعدي

على هذا العقد، يقول الحارث بن حلزة:⁴

وَأَذْكُرُوا حِلْفَ ذِي الْمَجَازِ وَمَا قَدْ	مَ فِيهِ الْعُهُودُ وَالْكَفْلَاءُ
حَذَرَ الْجَوْرِ وَالتَّعَدِّي وَهَلْ يَنْبُ	قُضُ مَا فِي الْمَهَارِقِ الْأَهْوَاءُ
وَأَعْلَمُوا أَنَّنا وَإِيَّاكُمْ فِي	مَا اشْتَرَطْنَا يَوْمَ احْتَلَفْنَا سَوَاءُ

¹ - زهير، الديوان، ص 107.

² - عبدالرحمن، الشعر وأيام العرب، ص 318.

³ - عمرو بن كلثوم، الديوان، ص 81.

⁴ - الحارث بن حلزة، الديوان 36.

لقد تعددت الأحلاف والمواثيق في العصر الجاهلي، مثل حلف ذي المجاز، وكان على العربي واجب وهو يتمثل بالحفاظ على هذه العهود والوفاء بها لطرف آخر وعدم الخيانة والغدر فهي ليست من شيم العربي الكريم الأبّي الفارس، وشيعة الوفاء تقوي دعائم الترابط والثقة بين الناس وتؤدي إلى تماسكهم وتظافرهم.

والعربي في جاهليته كان شديد الوفاء بالعهود، والحرص على توثيقها، وقد يبذل في سبيل وفائه أعز ما يملك، بل يرى من العار أن ينقض وعداً أو ينكث عهداً، وكان من عادة القبائل أن ترفع لواءً للغادر في أسواقها ازدراءً به، وعقوبة نفسية له، للجريمة التي ارتكبها في حق نفسه وحق مجتمعه.

ومن ذلك يمكن القول إن الوفاء خلق اجتماعي، جوهره الصدق في الفعل، وآلية تنفيذه الإلتزام بالقول، فإذا ما أبرم الإنسان وعداً عليه أن ينجزه، ويلزم بما وعد.¹

ومن صور الوفاء الجاهلي الوفاء للجار، فللجار حقوق كثيرة ذكر منها الكرم، وكذلك للجار حق الوفاء والحفاظ عليه وعدم خيانتة، ومن ذلك قول الأعشى في وصف محبوبته التي تقي بحقوق جاراها وتحفظها:²

ليست كمن يكره الجيران طلعتهَا ولا تراها لسرّ الجار تختلُّ

ومن ذلك أيضاً قول لبّيد في إشارته إلى منزلة الجار، فهو كالضيف والتعدي عليه نقيصة له وله الكرم والوفاء وكل حق يقول:³

فَالضَيْفُ وَالْجَارُ الْجَنِيبُ كَأَنَّمَا هَبَطَا تَبَالَةً مُخْصَبًا أَهْضَامُهَا

تعددت صور الوفاء في الحياة الجاهلية وتنوعت وفي ذلك بيان لأهمية الوفاء ومنزلته بالنسبة لهم وضرورته، وهو يعكس جملة من الأخلاق والعلاقات الطيبة التي كانت بينهم قديماً، حتى غدا الوفاء خلقاً نبيلاً يتغنى به العربي ويمتدح به الشعراء.

¹ - دراوشة، القيم الانسانية في الشعر الجاهلي، ص 196-197.

² - الأعشى، الديوان، ص 131.

³ - لبّيد، الديوان، ص 318.

6.4 الحلم:

شاع الطيش والجهل وسرعة الغضب والانفعال بين العرب في جاهليتهم، إذ إن العربي بطبعه سريع الانفعال عصبي المزاج، لا يتوانى أن يثور لأتفه الأسباب، متسلحاً بدعم قبيلته له دفاعاً عنه، وقد أحلت العصبية هذا الخلق في نفسيته، ويفخر أحياناً بالطيش والجهل، ولكن في وسط هذا الطيش برز خلق الحلم والحلماء، على النقيض من الطيش والسرعة والتهور.¹

والحلم، الأناة والتعقل، وهو نقيض السفه، وقيل: حلمه أمر بالحلم، والحلم يعني الأناة والتثبت في الأمور.²

وقد رأى العرب أن قيمة الحلم، من الخصال المؤهلة للسيادة، ذلك أن سرعة إنفعالهم، واستثارتهم بالكلمة العارضة، والتي تؤدي إلى الاقتتال وإراقة الدماء، تتطلب منهم أن يسودوا من يتصف بهذا الخلق³، وكان الحلم لهذه الأسباب خصلة نادرة في المجتمع القبلي لا يتاح إلا لمن أوتي حظاً عظيماً من القدرة على ضبط النفس وقلة الاستجابة لدواعي الاستقزاز والإثارة، وكان اتصاف سيد القوم بالحلم خليقاً أن يجنبهم كثيراً من الشر، وأن يشيع في نفوسهم الشعور بالاطمئنان والأمن.⁴

وفي شعر المعلقات إشارات واضحة تدل على قيمة هذا الخلق والسلوك، ومن

ذلك قول طرفة يثني على نفسه بحلمه وترفعه عن ظلم ذوي القربى حيث يقول:⁵

وظَلُمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى الْمَرْءِ مَنْ وَقَعَ الْحَسَامُ الْمُهَنْدَ
فَذَرْنِي وَخُلُقِي إِنِّي لَكَ شَاكِرٌ وَلَوْ حَلَّ بَيْتِي نَائِباً عِنْدَ ضَرْغَدِ

فقد تحمل وصبر على ذوي القربى فهذه من أخلاقه وطبعه، فهو مظلوم ليس ظالماً، وإنما دفعه إلى ذلك ما يتصف به من حلم ورجحان عقل، ولهذا لم يظلم ولم يثار لظلمه وينتقم.

¹ - دراوشة، القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي، ص 189.

² - ابن منظور، لسان العرب مادة حلم

³ - دراوشة، القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي، ص 190.

⁴ - النص، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص 76.

⁵ - طرفة، الديوان، ص 36.

7.4 الدعوة إلى السلم (فك الصراع):

يسعى الإنسان دائماً منذ الأزل بحثاً وراء السلم والسلام، لا يحبذ الشر لأن عواقبه وخيمة على الفرد والمجتمع من حروب وويلات وغيرها، ورغم ما في الإنسان الجاهلي من طيش وتهور إلا أنه كان يسعى إلى البعد عن الحرب والاقْتتال، وفك النزاع بين المتخاصمين.

وسيطرت نزعة الشر على المجتمع الجاهلي في كثير من الأحيان، واشتد الصراع والاقْتتال بين كثير من القبائل، الأمر الذي أدى إلى إفساد حياتهم، وجعلهم يعيشون في حالة من الخوف، مما حدا بعقلائهم وحكمائهم إلى الوقوف بوجه الشر، ومحاولة بث الأمن والطمأنينة، مدركين أثر تلك الحروب عليهم، في تحطيم روابط المودة والمحبة، فكان لابد لهم من وقف الاقْتتال الذي أنهك قواهم وجعلهم يعيشون في حالة من الخوف والاضطراب، وهذا السعي المحمود لفك النزاع قيمة خلقية نبيلة، لأن فيها حقناً للدماء.

ويعد السلم من المثل التي برزت في خضم الحروب والغزو الذي سادت في الجزيرة العربية، ومع ذلك فإنهم كان يجنحون إلى المصالحة والسلم ما وسعهم ذلك، وما دام ذلك لا يلحق بهم عاراً، بل إننا رأينا أن عبساً في حرب داحس والغبراء حاولت تجنب الحرب أكثر من مرة، ومثل ذلك في حرب البسوس كذلك، حينما أرسلت تغلب وفداً إلى بكر تسألها أموراً منها أن تسلمها جاساً أو هماماً فتقتله بكليب، ولو قبلت بكر ما حدثت حرب البسوس، ولكن الذي كان يفجر الحرب هو العصبية والخوف من القبيلة الأخرى أن تغير قبولها لشروط الطرف الموتور على أنه تخاذل أو استسلام، وأكثر ما تظهر هذه حب المصالحة، عند القبائل التي ترتبط برباط القرابة، أو تجمعها مصالح.¹

ولكن الرغبة في السلم والدعوة إليه لا نجدها ونسمع له صوتاً إلا في شعر الحروب بين القبائل التي تنتمي إلى أب واحد كحرب داحس والغبراء (عبس وذيبيان)، وحرب البسوس (بكر وتغلب) والحروب بين بطون القبيلة هي حروب إخوة من الطبيعي أن تولد أمام هذا الشعور برابطة القرابة والدم فكرة بغض الحرب

¹ - عبدالرحمن، الشعر وأيام العرب، ص 319.

وتزيين السلم بين الفريقين، ولكن ليس في بدايتها، وإنما عندما يكتوي الفريقان بنارها، ومن أبرز الشعراء الذين دعوا للسلم زهير بن أبي سلمى، فهو يحذر حي غطفان من العودة الى الاقتتال ويذكرهم بما لاقوا من ويلاتها وجرائرها، وبخاصة أن زهيراً كان يلقب بشاعر السلام¹، وفي ذلك يقول: ²

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَدَقُّتُمْ	وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرْجَمِ
مَتَى تَبَعَثُوهَا تَبَعَثُوهَا ذَمِيمَةً	وَتَضُرُّ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضُرَّمِ
فَتَعْرُكُكُمْ عَرَكَ الرَّحَى بِثَقَالِهَا	وَتَلْقَحُ كِشَافاً ثُمَّ تَنْتَجُ فَتَنْتَمِ
فَتَنْتَجُ لَكُمْ غِلْمَانٌ أَشَامَ كُلُّهُمْ	كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَقْطُمِ
فَتَغْلِلُ لَكُمْ مَا لَا تَغْلِلُ لِأَهْلِهَا	قُرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِيزٍ وَدِرْهَمِ

فهو يدعو إلى الابتعاد عن الحرب ونارها، فهي لا تجلب إلا الويلات على أصحابها فيذكرهم بما أحدثته، ويشير زهير كذلك إلى السادة الذين هموا للصلح بأموالهم، فالدعوة إلى الصلح والسلم من أخلاق علية القوم والسادة، فقد قدم كل من هرم بن سنان والحارث بن عوف أموالهم ودفعوا ديات القتلى مقابل إحلال السلام فهما من أبرز الشخصيات التي دعت إلى السلم في العصر الجاهلي، ولهذا أكثر الشاعر من مدحهما وجعلهم أفضل الناس، حيث يقول: ³

سَعَى سَاعِيَا غَيْظِ بْنِ مُرَّةٍ بَعْدَمَا	تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ بِالْدَمِ
فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلُهُ	رِجَالُ بَنُوهِ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْهُمِ
بِمِينَا لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا	عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمِ
تَدَارَكْتُمَا عَبَسًا وَذُبْيَانٍ بَعْدَمَا	تَقَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمِ
وَقَدْ قُلْتُمَا إِنَّ نُدْرِكَ السَّلْمَ وَاسِعاً	بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْقَوْلِ نَسْلَمِ
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ	بَعِيدَيْنِ فِيهَا مِنْ عُقُوقٍ وَمَأْتَمِ

وقد تلمح الرغبة في السلم والبعد عن الحرب في معلقة الحارث بن حلزة،

الذي يدعو إلى الصلح ونبذ الحرب، حيث يقول: ⁴

¹ - عبدالرحمن، الشعر وأيام العرب، ص 321.

² - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص 107.

³ - زهير الديوان، ص 105-106.

⁴ - الحارث بن حلزة، الديوان، ص 35.

فَاتْرُكُوا الطَّيْخَ وَالتَّعَاشِيَّ وَإِمَّا
وَأَذْكُرُوا حَلْفَ ذِي الْمَجَازِ وَمَا قَدْ
حَذَرَ الْجَوْرِ وَالتَّعَدِّيَّ وَهَلْ يَنْبُ
وَأَعْلَمُوا أَنَّنا وَإِيَّاكُمْ فِيْ
فَتَرَى أَثْرًا لِحُبِّ السَّلَامِ فَهُوَ يَذْكُرُهُم بِالْحَلْفِ الَّذِي يَمْنَعُ التَّعَدِيَّ وَالْجَوْرَ وَأَنَّهُمْ
سَوَاءٌ فِي هَذَا الْحَلْفِ.

ونرى من ذلك أن العرب ليست متعطشة للقتال ولكن إذا دعت الحرب إليها
هبوا إليها مجبرين كارهين لها، وحتى لو قامت فإن هناك أصوات السلام التي تنادي
بإيقافها والحد من سفك الدماء بها، فقد سعى المصلحون بكل ما يملكون من جهد
ومال في سبيل القضاء على الخصومات والعدوان، ولإيقاف نار الحرب في كل
مكان، ولإشاعة جوٍّ من الحب والصفاء.¹

والشعر الجاهلي لم يخل من تصوير أخلاق القوم ومثلهم العليا فهو يعتز بتلك
القيم من كرم ووفاء، وعزة، وشجاعة وغيرها، وهذه القيم تمثل ناقوساً طبيعياً يتحتم
احترامه²، فعلى الرغم من وجود آفات اجتماعية وسلوكيات غير مرغوبة في
المجتمع الجاهلي، إلا أن ذلك المجتمع كان يتمتع بالخصال الحميدة.

8.4 الحكمة:

تنوعت المآثر والقيم والأخلاق في الحياة، وتعددت التجارب التي خاضها
الإنسان الجاهلي، من حرب وسلم، ورحلة وترحل وغيرها، وكلها كان لها أثر كبير
في تعميق الفهم في الأمور، والتعامل مع تجارب الحياة بحكمة وروية.
فالحكمة تصدر عن تجارب خاصة عاشها ويعيشها المرء، وترتبط بواقع
محدد في حياته، وقد تخرج أحياناً من دائرته الذاتية إلى دائرة أشمل وأعم، فيحاول
أن يضفي عليها طابعاً إنسانياً عاماً، ولما كان الشعراء لسان الأمة وحكماءها، فقد
تميزوا بتسجيل تجاربهم الذاتية من خلال قصائدهم، فأضفوا عليها بأحاسيسهم

¹ - دراوشة، القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي، ص 211.

² - بوبعيو، جدلية القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي، ص 3.

المرهفة، وعواطفهم المفعمة بالحياة أسلوباً طريفاً يحسن أن يستفاد منه في كل الأزمنة والعصور.¹

والحكمة الجاهلية دليل رقي على عقلية الشعراء وتفكيرهم وتأملهم في قضايا الناس والحياة، وهي ثمرة تجارب طويلة وفطنه ونظر ثاقب وبصيرة نافذة بالناس وغايته ونهايته، ثم إحساس دقيق بالحياة وهي ليست فلسفة ذات أصول أو تفكير منظم بل هي الإحساس الذاتي، والتأثر أقرب منها إلى التفكير العلمي، فهي نظرات وانطباعات وتأمل في الحياة والموت، ومحاولات ليست نظم خلقية يتبعها الناس فيما يرضونه من خصال وسلوك، أو ما يقومون به من أفعال وعادات، ولذلك جاءت حكمتهم حقائق مجردة في تناول الفطرة السليمة تمليها التجربة والمشاهدة وفق مثلهم العليا السائدة في عصرهم، وكانت أفكارهم صدى لهذه التأملات والمشاهدات، تصاغ في بيت شعر أو مثل أو عبارة أنيقة موجزة غزيرة المعنى ذات دلالات بعيدة، تقع من النفس موقعها البالغ المؤثر.²

وقد ظهر في الحياة الجاهلية عدد من الحكماء الذين أدخلوا الحكمة في الشعر وعدوا حكماء، ومن هؤلاء الشعراء الذين برزت الحكمة في قصائدهم لبيد بن ربيعة، وزهير بن أبي سلمى، وطرفة بن العبد، وعبيد بن الأبرص وغيرهم من الشعراء.

وقد جاءت حكمة الجاهليين على قدر كبير من النضج العقلي، فقد أفادوا من خبرة الماضين وأخبار الملوك وقصص الأمم البائدة، وشهد بعضهم حياة طويلة حافلة، أو أجيالاً تمضي وأخرى تنشأ، وأصابوا من خير الحياة وشرها، وذاقوا حلوها ومرها، ففرحوا بما حبتهم، وحزنوا رزأتهم به من فقد ولد أو ذهاب حبيب، واعتبروا بكل ذلك، وكان من هؤلاء الشعراء الجاهليين من نظر واعتبر بالماضيين وتأمل في مصير الناس وغاية الحياة، ولجأوا أخيراً إلى الله سبحانه، كما فعل لبيد وزهير، ومنهم من انصرف إلى الحياة يلهو بها ويعيش ملذاتها ويعيش ليومه بل لساعته كطرفة بن العبد.³

¹ - دراسة، القيم الانسانية في الشعر الجاهلي، ص 224.

² - الجبوري، يحيى، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، ط7، 1994، ص 403.

³ - الجبوري، يحيى، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، ط7، 1994، ص 403.

ونجد في معلقة لبيد تجسيدا للحكمة في قصائده فتأتي في نغمة روحية صافية، وفي سياق تسبيح الله وذكر الدين، وتأتي للعبارة والعظة عند ذكر الأمم الماضية، ومن ذلك حكمته في الحث على القناعة والتحلي بخلق الأمانة حيث يقول:¹

فَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَ الْمَلِكُ فَإِنَّمَا سَمَ الْخَلَائِقَ بَيْنَنَا عَلَامُهَا
وَإِذَا الْأَمَانَةُ قُسِّمَتْ فِي مَعْشَرٍ أَوْفَى بِأَوْفَرِ حَظَّنَا قَسَامُهَا

ومن حكمته في الموت:²

صَادَقْنَ مِنْهَا غِرَّةً فَأَصْبَنَهَا إِنَّ الْمَنَايَا لَا تَطِيشُ سِهَامُهَا

فقد جسد لبيد في حكمه الأخلاق العربية الأصيلة التي شاعت في أوساط السادة والعقلاء والحكماء.

وأكثر ما تظهر الحكمة في شعر زهير بن أبي سلمى وبشكل لافت، ولعل ذلك لكثرة ما شهد من الأحداث وكثرة ما عرف من أخلاق الناس وعنادهم وتعصبهم، فقد شهد خيانات وحروباً، كما شهد صلحاً ونقضاً، ورأى دماءً تسيل، ورأى قصاصاً على جرائم التافهة، ورأى جوداً وتضحية وبذلاً، كما رأى شجاعة و جبناً، واستطاع بكل ذلك أن يصوغ الحكمة البالغة.³

ولعل زهيراً نظر إلى الحياة نظرة واقعية، فقد خبرها وعرف شرورها، وخبر أخلاق الناس ونوازعهم، فتراه يسوق الحكمة بأسلوب وعظي وحس ملموس يقدم بين يدي الناس نظرته إلى الحياة، فالموت نصيب الإنسان إن لم يصبه اليوم فغداً، وإن أخطاه عاش دهرًا فيهرم ثم يدركه الموت، والمرء مجبر في حياته إن يعاشر الناس ويصانعهم، ولا يظلموه وأذلوه، أما المال فلا خير فيه إذا لم ينفق في صالح القوم، ويبذل دون الشرف والضعيف في مجتمع القوة لا خير فيه، إن لم يقوَ في حياته سحقه الأقوياء، والجبان في هذه الدنيا الخائف من منية لا فرارا له وهل

¹ - لبيد، الديوان، ص 321.

² - لبيد، الديوان، ص 321.

³ - طبانه، بدوي، معلقات العرب، ص 282.

يستطيع أن يتخذ سلماً في السماء¹ وعلى هذا النمط يصوغ زهير كثيراً من أبيات الشعر على ذلك يقول: ²

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشَوَاءَ مَنْ تُصِبُ	تُمِتُهُ وَمَنْ تُخْطِئُ يُعَمَّرُ فِيهِرَمَ
وَأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ	وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمَ
وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ	يُضَرِّسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسَمِ
مَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخُلُ بِفَضْلِهِ	عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَى عَنْهُ وَيُذَمُّ
مَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرْضِهِ	يَفِرُّهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمُ
مَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ	يُهْدَمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ
وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنْلَنُهُ	وَإِنْ يَرِقَّ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلْمِ

لقد سئم زهير مشاق هذه الحياة وشدائدها، وهي كثيرة ومتنوعة، وعقله الكبير الذي وعى ما معنى ما حضر لم يستطع الإحاطة بما هو متوقع، وتستطيع أن تجد في كل بيت من أبيات الحكمة لغة فكرية باقية تصلح أن تكون قانوناً من قوانين الحياة.³

والحكمة في شعر زهير ناتجة عن إدراكه وإحساسه بمطامح مجتمعه وأمانيه وهو المثال الذي تتوسم فيه كل الفضائل للجماعة التي ينتمي إليها، ومن هنا كان وجدانه وإحساسه يتوخى في تقديم السلوك الاجتماعي الذي يتفق مع وجهة نظر التجربة القبلية، ويساير مثلاً وقيماً على أن للانتماء شروطه وواجباته التي يقتضي على الفرد القيام بها لكي يوفق بين الشخصية الذاتية والتقبل الاجتماعي وأيضاً الرغبات العامة، وتحقيق النموذج المطلوب⁴، وذلك ما تتأمله في قوله: ⁵

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ	يُضَرِّسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسَمِ
وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرْضِهِ	يَفِرُّهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمُ
مَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخُلُ بِفَضْلِهِ	عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَى عَنْهُ وَيُذَمُّ

¹ - الجبوري، الشعر الجاهلي، ص 407.

² - زهير، الديوان، 11-110.

³ - عامر، مرآة الشعر الجاهلي، ص 353.

⁴ - القبيلة في الشعر الجاهلي. ص 323.

⁵ - زهير : الديوان، ص 110.

وقد تعددت صور الحكمة في شعر زهير وخصوصاً في معلقته، ولعلها ناتجة من خبرته وتجاربه الطويلة في الحياة، وما شاهده من حروب ونزاعات بين القبائل. وتظهر الحكمة بشكل لافت في شعر طرفة، حيث يرى بدوي طبانه أن ذلك ((النبوغ المبكر وشدة حساسيته لما حول))¹.

ومما جاء من حكم طرفة بن العبد قوله:²

أَلَا أَيُّهَا اللَّائِمِي أَشْهَدُ الْوَعَى وَأَنْ أَنْهَلَ اللَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي
فَإِنْ كُنْتَ لَا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِّيَّتِي فَدَعْنِي أَبَادِرُهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

هذه من الحكم التي يؤمن بها طرفة لأنه من الشبان الذين عكفوا على اللذات غير مبالين بالحياة، ولا حريصين على مالٍ أو جاه، لأنهم عرفوا أن مقامهم في تلك الحياة مقر، وأنه ليس لحي بقاء، ومن جانب قوله في مصير الإنسان تصويره، أن الموت يسوى بين الناس جميعاً، وأن قبر الكريم المسرف على نفسه لا يقل عن قبر البخيل الشحيح الحريص على النفس.³

وفي ذلك يقول طرفة:⁴

أَرَى قَبْرَ نَحَامٍ بِخَيْلٍ بِمَالِهِ كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِي الْبَطَالَةِ مُفْسِدِ
تَرَى جُثُونَيْنِ مِنْ تُرَابٍ عَلَيْهِمَا صَفَائِحُ صُمٍّ مِنْ صَفِيحٍ مُنْضَدِّ
أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكَرَامَ وَيَصْطَفِي عَقِيلَةَ مَالٍ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ
أَرَى الْعَيْشَ كَنْزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ وَمَا تَنْقُصُ الْأَيَّامُ وَالْدَّهْرُ يَنْفَدِ
لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لَكَالطُّوْلِ الْمُرْخَى وَثَنِيَاهُ بِالْيَدِ
مَتَى مَا يَشَأْ يَوْمًا يَقْدُهُ لِحَتْفِهِ وَمَنْ يَكُ فِي حَبْلِ الْمَنِيَّةِ يَنْقَدِ
أَرَى الْمَوْتَ أَعْدَادَ الْنُفُوسِ وَلَا أَرَى بَعِيدًا غَدًا مَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مَنْ غَدِ
سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَرُودِ
وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَبِعْ لَهُ بَتَاتًا وَلَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتَ مَوْعِدِ

¹ - طبانه، معلقات العرب، ص 280.

² - طرفة، الديوان، ص 33.

³ - طبانه، معلقات العرب، ص 281.

⁴ - طرفة الديوان، ص 34-35.

وغالباً ما تتضمن الحكمة خلقاً عربياً أصيلاً، كما يبدو في قول طرفة:¹
 وظلُّمُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحَسَامِ الْمُهَنْدِ
 فعلى الرغم من صغر سنه فإنه كان على قدر من الوعي والفكر، ولهذا تجد في شعره جملة من الحكم العربية الأصيلة.
 ومن الشعراء الذين تضمن شعرهم حكماً وأخلاقاً عربيةً أصيلةً، عبيد ابن الأبرص، حيث قال:²

فَكُلُّ ذِي إِيْلٍ مَوْزُوثٌ	وَكُلُّ ذِي سَلْبٍ مَسْلُوبٌ
فَكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَوْوَبٌ	وَعَائِبُ الْمَوْتِ لَا يَغِيبُ
مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ	وَسْأَلُ اللَّهِ لَا يَخِيبُ
يَعْظُ النَّاسُ مَنْ لَا يَعْظُ الذُّ	هَرُّ وَلَا يَنْفَعُ التَّائِبُ

فحكمه زخرة بالفكر والفلسفة، وبكل ما له علاقة بالحياة.

والحكمة هي نتاج مواقف عاشها عبيد، وخبرها وتفاعل معها وإذا فرضنا أنه عاش مائة سنة أو أكثر فهي جديرة بأن تعطينه الكثير من الأمور في الحرب والسلام والمعاهدات والصدقات والشجاعة وغيرها مما يحمده العرب أو ما يذمونه ويعدونه المثل الأعلى.³

ونستنتج من الحكم السابقة أنها كانت صادرة عن تجارب واقعية صادقة في الحياة، وأنها اشتملت على كثير من الأخلاق العربية الأصيلة.
 ولعل فيما سلف ما يؤكد أن مجتمع الجاهلية لم يخلُ من منظومة القيم والأخلاق الرفيعة، والتي أسهمت في توثيق أواصر المحبة والوئام بين أبرز أفراد المجتمع، وأسهمت أيضاً في حقن الدماء في كثير من الأحيان، وكثر من هذه القيم والأخلاق المقبولة أثنى عليها الإسلام فيما بعد وأقرها ضمن الإطار الإسلامي.

¹ - طرفة، الديوان، ص 34.

² - الأبرص، الديوان، ص 136.

³ - عامر، مرآة الشعر الجاهلي، ص 253.

الخاتمة

في ضوء دراسة الجزيئات السابقة المتعلقة بموضوع (مظاهر العمران الاجتماعي في شعر المعلقات)، وفي ضوء دراسة النماذج الشعرية السابقة تبين للباحثة ما يلي:

الفصل الأول: الذي تناول مظاهر الحياة القبلية في شعر المعلقات تبين للباحثة أن هذا الشعر سجل كثيراً من صور الحياة القبلية، حيث أظهر معاناة الجاهليين في الترحل من مكان لآخر طالباً لبواعث الحياة، ثم تضمن هذا الشعر اهتمام العرب بالنسب إلى القبيلة، وكذلك العصبية القبلية التي بدت صورتها بشكل جلي، ثم كشف هذا الشعر عن صفات سيد القبيلة، بالإضافة إلى ما كان يعقد بين القبائل من أحلاف، وأظهرت بعض النماذج الشعرية في المعلقات مظاهر ديانة العربي في ذلك العصر.

وفي الفصل الثاني: الذي تناول مظاهر الحضارة في شعر المعلقات كشف الشعر عن طبيعة الحضارة في الأطلال وما يخلفه الجاهلي من تبعات الرحيل، وصورة هذا الرحيل وما يلزم به من أدوات اهتموا بصنعها، وصورة الخيام التي يسكنوها وكذلك الأطام والحصون والقصور التي شاهدها الجاهلي من خلال تجواله بين بيئات مختلفة في هذه الصحراء، فانعكس ما يشاهده من تلك البيئات في شعره، من ذلك صورة مجالس الخمر وأدواتها التي تستخدم، وكذلك أدوات الطعام والشراب التي استخدموها وصنعوها، والأسلحة التي حاربوا بها، ومن ذلك السيف والرمح والدرع وغير ذلك، حيث افتخر العربي بكل مظاهر الحضارة التي استخدمها في حياته.

وفي الفصل الثالث: الذي تناول الذوق الجمالي في شعر المعلقات حيث تمثل هذا الذوق بما يتعلق بالمرأة، فقد برزت صورة المرأة عند شعراء المعلقات جميعهم وبخاصة ما ورد في معلقات امرئ القيس والأعشى وليبد، فظهرت صورة المرأة من حيث وصف مفاتها وجمالها الجسدي، وصور لباسها وحليها وطبيعتها وزينتها، مما يدل على اهتمام المرأة بنفسها وجمالها منذ الأزل.

والفصل الرابع الذي تناول قيم الجاهلي ومثله العليا، كشف شعر المعلقات عن مجموعة من القيم في الحياة الجاهلية، ومن ذلك قيم الكرم والشجاعة والفروسية، والوفاء، والحلم وغيرها، وتبين للباحثة أن هذه القيم كانت لازمة من لوازم الحياة العربية في العصر الجاهلي، حيث كان العربي بحاجة إلى مثل هذه القيم، كما أن مثل هذه القيم كانت تنظم شؤون الأفراد في القبيلة الواحدة، وكذلك شؤون القبائل فيما بينها.

ومهما يكن من أمر فإن هذه النتائج وغيرها تبين أن شعر المعلقات تضمن صورة صادقة وواقعية للحياة الجاهلية ومظاهر العمران الاجتماعي بأدق التفاصيل، حتى أن هذا الشعر يعد مرجعاً لا غنى عنه في دراسة حياة العرب في ذلك العصر.

المراجع

- الأعشى، أبو بصير ميمون بن قيس، (ت7هـ)، 1950، الديوان شروح وتعليق محمد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة.
- الألوسي، محمد شكري، 1980، بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1.
- امرؤ القيس، امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، (ت545)، د.ت، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
- الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم 328هـ، 1980، شرح القصائد السبع الطوال، تحقيق عبدالسلام صبار، دار المعارف، ط4.
- البستاني، بطرس، 1981، الشعر الجاهلي، مطابع قصر العدل الجديدة.
- بوبيعوي، بوجمعة، 2001، جدلية القيم في الشعر الجاهلي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، 1991، البخلاء، تحقيق أحمد العوامري وعلى الجارم، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الجبوري، يحيى، 1994، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط7.
- الحارث بن حلزة (ت580هـ)، 1973، ديوان شعر الحارث، تحقيق ناصر الدين الأسد، دار صار، بيروت.
- الحاوي، إيليا، 1970، النابغة سياسته وفنه، دار الثقافة بيروت، ط2.
- الحاوي، سعد، 1983، الصورة الفنية في شعر امرئ القيس، دار العلوم، المملكة العربية السعودية، ط1.
- الحوفي، أحمد محمد، د.ت، الحياة العربية في الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة.
- الحوفي، أحمد محمد، د.ت، الغزل في العصر الجاهلي، دار القلم بيروت.
- الحوفي، أحمد محمد، د.ت، المرأة في الشعر الجاهلي، دار النهضة، مصر للطباعة، القاهرة.

- ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون (ت808)، 1999، المقدمة، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت.
- دراوشة، صلاح أحمد، 2001، القيم الإنسانية في الشعر الجاهلي من خلال دواني المفضليات والأصمعيات، مكتبة الفجر، الأردن، ط1.
- الرباعي، عبدالقادر، 1984، الصورة الفنية في شعر زهير بن أبي سلمى، دار العلوم، المملكة العربية السعودية، ط1.
- زهير بن أبي سلمى المزني (ت 13ف.هـ)، 1964، شرح الديوان، صنعة الإمام ثعلب، الدار القومية، القاهرة، 964.
- الزوزني، أحمد بن أحمد الحسين، 1994، شرح المعلقات السبع، دار الإيمان، دمشق، ط1.
- أبوزيد، علي إبراهيم، 1993، طرفة بن العبد شاعر البحرين في الجاهلية، دار الكتاب الجامعي، العين، ط1.
- أبوسويلم، أنور، 1990، الحضارة والمعتقد في الشعر الجاهلي، دار عمار، الأردن.
- أبوسويلم، أنور، 1987، دراسات في الشعر الجاهلي، دار الجيل، بيروت، ودار عمار الأردن، ط1.
- أبوسويلم، أنور، 1992، قراءة في معلقة طرفة بن العبد، مجلة جامعة الملك سعود، مجلد 3 ، 1992.
- السيوفي، عصام، 1991، المرأه في الأدب الجاهلي، دار الفكر، بيروت، ط1.
- الشيبياني، ابي زكريا يحيى بن علي، (الخطيب التبريزي) ، المعلقات العشر، تحقيق عمرو فاروق الطباع، دار الأرقم بيروت.
- صديق، حسين بشير، 1998، المعلقات السبع، الدار السودانية، للكتب، الخرطوم، ط1.
- ضيف، شوقي، د.ت، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط9.
- طبانه، بدوي، 1984، معلقات العرب، دار المريخ، الرياض.
- طرفة بن العبد: طرفة بن العبد بن سفيان البكري (ت 564م)، 1975، الديوان، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.

- طليمان، غازي والأشقر، عارف، 2001، الأدب الجاهلي، دار الفكر، دمشق.
- عامر، فتحي أحمد، د.ت، مرآة الشعر الجاهلي، دار المعارف الاسكندرية.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت 328)، 1989، العقد الفريد ط1، دار إحياء التراث، بيروت.
- عبدالرحمن، عفيف، الشعر وأيام العرب، شركة الفجر العربي، بيروت.
- عبدالرحمن، نصرت، 1982، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، مكتبة الأقصى، الأردن، ط2.
- عبدالعزیز، عيسى حماد، 1989-1990، صراع الإنسان ضد وحش الصحراء عند أصحاب المعلقات، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر.
- العتوم، علي حسين، 2002. الشعر الجاهلي والحياة العربية، مجلة البلقاء والعلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد 9، عدد 1.
- العتوم، علي حسين، 1980، المعلقات العشر، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الاردنية.
- عجلان، عباس، 1985، عناصر الإبداع الفني في شعر الأعشى، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية.
- العشماوي، محمد زكي، 1980، النابغة الذبياني، دار النهضة بيروت.
- عمرو بن كلثوم التغلبي، 1991، الديوان، جمعة اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت.
- العمرى، زينب، 1963، الصفات الحضارية في شعر الأعشى، دار الملك عبدالعزيز، الرياض.
- عنتر بن شداد العبسي ت(516م)، 1983، الديوان، تحقيق محمد سعيد مولي، ط2، المكتب الاسلامي، بيروت.
- ليبد بن ربيعة العامري (ت41هـ)، 1962، شرح الديوان، شرح وتحقيق احسان عباس، ط2، التراث العرب، الكويت.
- المبيضين، ماهر، 2006، مظاهر الحضارة المادية في الشعر الجاهلي، دار عمار، الأردن، ط2.

مرتاض، عبدالمالك، 1998، **السبع المعلقات**، مقاربة سينمائية انثروبوجية
لنصوصها، منشورات اتحاد الكتاب.

مكي، الظاهر، 1985، **امروء القيس حياته وشعره**، دار المعارف، مصر.

ابن منظور، محمد بن مكرم، 1994، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، 1980، **مجمع الأمثال**، تحقيق
محمد محي الدين عبدالحميد، دار الفكر، دمشق، ط3.

النابعة الذبياني، زياد بن معاوية الذبياني، (ت604)، 1976، **الديوان**، تحقيق محمد
الطاهر، الشركة التونسية للنشر والشركة الوطنية الجزائرية.

نبوي، عبدالعزيز، 1989، **شرح معلقتي طرفة بن العبد والحارث بن حلزة**، الصدر
لخدمات الطباعة، مدينة نصر، ط1.

النص، إحسان، 1985، **زهير بن أبي سلمى حياته وشعره**، دار الفكر، دمشق.

النص، إحسان، 1963، **العصبية وأثرها في الشعر الأموي**، دار التهضة، دمشق.

النعيمي، 2008، أحمد اسماعيل، **الشعر وأيام العرب**، دار الضياء، الأردن.

يوسف، حسني عبدالجليل، 1998، **عالم المرأة في الشعر الجاهلي**، الدار الثقافية،
القاهرة، ط1.

الاسم: صفاء حسين البيايضة

الكلية: الآداب

التخصص: اللغة العربية

السنة: 06-10-2010

الهاتف الأرضي: 032360296

الهاتف النقال: 07955011097